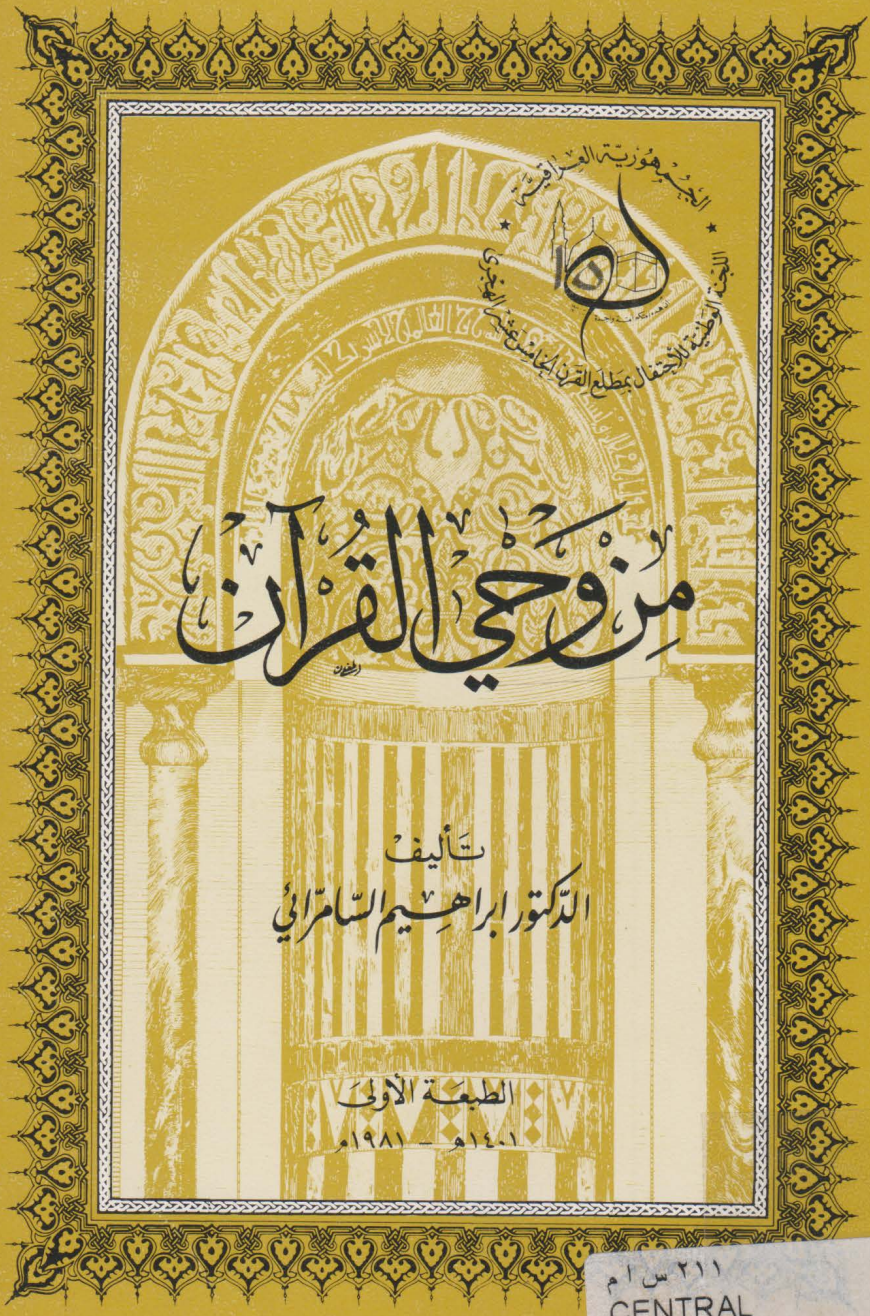

تأليف

الدكتور ابراهيم السامرائي

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

٢١١ س ا م
CENTRAL

من وحي القرآن

الطبعة الأولى
١٤٠١هـ - ١٩٨١م

بسم الله الرحمن الرحيم

من وحي القرآن

تأليف
الدكتور ابراهيم السامرائي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠١ هجرية
١٩٨١ ميلادية

اللجنة الوطنية
للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

اللهمَّ إني أحمدك حمداً أتوسم فيه رضاك ، وأستعين به على ذكرك وألتمس به هداك .

وبعد فإني مقبل على كلام الله ـ جلّت عظمته ـ لأقف على أنماطٍ من الذكر الحكيم ، أتحرى فيها أصالة هذا الحدث العظيم . أقول : كثر الكلام على الأصالة في عصرنا فوصفوا الحضارة بالأصالة ، ووصفوا الأدب والفن بالأصالة . وليس في توقنا أن نتبين وجه الأصالة في كثيرٍ مما وصف بهذه الصفة النادرة . وكأن هؤلاء استعاروا هذه الكلمة من العربية لتكون أداءً جيداً لما هو معروف في اللغات الغربية من قولهم : «Originalité» وهي الأصالة ، والموصوف هو « الأصيل » وهو «Original» .

غير أني آثرت « الأصالة » معتمداً فيها على العربية غير ناظر لهذا الكَلِم الأعجمي ، فهي من « الأصل » في العربية ، وعلى هذا تكون في لغتنا اسماً من أسماء المعاني نصير إليه من قولنا :

رأي أصيل أي ذو أصل ، ورجل أصيل : ثابت الرأي عاقل . وقد أَصُلَ أصالةً مثل ضَخُمَ ضخامة ، وفلان أصيل الرأي والعقل ، ومجد أصيل .

وأريد أن أتخذ من « الأصالة » مادة أدخل بها في المقام الرفيع للكلم السامي الذي حفل به كتاب الله قرآناً عربياً فصيحاً . أريد بهذه الأصالة جماع مواد هي الصدق والإحكام والحسن وإصابة دقائق المعاني .

ولا أريد أن أدخل في موضوع الإعجاز الذي يؤدي إلى درس البلاغة والنقد في حدودها عند القدامى وما جد من النظر فيها عند أهل هذا العصر ، ذلك أني معنيّ بالكلمة وبنائها وأصواتها ، وكيف جاءت في الذكر مكتملة في مادتها ، مشتملة على ضروب من الحسن ، حافلة بما ضُم إليها من الكلم فتأتّى من ذلك نظام فيه إحكام وانسجام ،وفاءً بما يحسن به التركيب من صفات ، وإدراكاً لما يعزّ من المعاني ، غير آخذٍ نفسي بمباحث البلاغة ومصطلحها المعروف .

ولعل القرآن أدرك من الإعجاز ما أدرك من قبل ، أنه استوفى من النظم ما لم يتأتّ للشعر ولا لغيره من فنون القول . أريد أن أقول : إن قدراً من الإعجاز يتجه إلى أن آي القرآن قد تأتّى له من بديع الصنعة ولطف التركيب ، ما ليس لنمط آخر من فنون القول .

وسآتي إلى موادَّ تتصل بالكلم القرآني مستهدياً بعلم هذه العربية الخالدة ، آمل أن أدرك ما أبتغيه في هذا المسعى المبارك المحمود ، ومنه ـ جل وعلا ـ التوفيق والسداد .

ابراهيم السامرائي

في ١٠ شعبان سنة ١٤٠٠ هـ .

المقدّمة

لعل من المفيد أن أقدّم للقارىء شيئاً يتصل بهذه العربية وما آلت إليه في فصيحها وعامّيِّها وما يتصل بهما قبل أن أعرض لموضوع الكلم في كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

ومن الخطأ أن نعقد مقابلة بين « الفصحى » و « العامية » ، ذلك أن هذه العامية لا يمكن أن تكون قسيماً لغوياً للفصحى . لقد فات الباحثين أن العربية الموسومة بالفصاحة درجات عدة ، فهي سائرة دارجة وهي فصيحة وهي فصحى . وهذه الأخيرة هي أعلى الدرجات وفصحاهن . ولا أريد بـ « السائرة الدارجة » العامية ، وذلك لأن بين هذه وتلك ما يدعونا إلى الميْز بينهما .

إن فذلكة « الفصحى » قديمة، لعلها ترجع إلى أن لغة قريش هي أفصح اللغات وهي فصحاهن . ولا أريد أن أعرض لهذه المقولة التي تفتقر أشد الافتقار إلى العلم . إنهم قالوا : إن لغة قريش هي الفصحى إرادة التفضيل ليخلصوا من ذلك إلى أن لغة القرآن هي لغة قريش . ويأبى العلم أن تكون لغة التنزيل العزيز هي اللغة القرشية وحدها . وكأن هذه اللغة قد أُريد لها أن تكون أثيرة مفضلة ، وهل لنا أن نقول بهذه المقالة ونحن نعرف من أمر « لغات القرآن » ما نعرف .

تم ماذا نقول في الحديث الشهير : « أُنزِلَ القرآنُ على سَبعةِ أحرفٍ . . . » .

لقد كثر التأويل في هذا الحديث وتعددت وجوه القول ، إلا أن شيئاً واحداً يصار إليه في فهم هذا الأثر الشريف ، وهو أنّ اللغات العربية القديمة مما نسميه في عصرنا بـ « اللهجات » ، قد وجدت سبيلها إلى كتاب الله الكريم ، ومنها لغة قريش التي كان لها النصيب الأوفر .

لقد أراد الخلفاء في عصر بني أُمية ، ثم في عصر بني العباس أن يُكتَبَ في فضائل قريش فكانت مصنّفات وكُتب تتصل بما كان لقريش من فضل . لقد كتب ابن الكلبي كتابه في « الأنساب » فكان مادة لأهل الدرس والعلم ، فقد أفاد منه مثلاً محمد بن حبيب في كتابه « المُنَمَّق » . إنك تعلم في هذا الكتاب لابن حبيب ما يتصل بقريش ونسبها وفضائلها وفصاحة لغتها ، فتجد أخباراً كثيرة وأحاديث عدة في هذا الباب .

ثم نخلص من ذلك إلى أن قريشاً أشرف « مُضر » وأن بني هاشم أفضل قريش ، وأن الناس « تِبْعٌ لقُريشٍ مؤمنُهم لمؤمنِهم وفاجِرهُمُ لفاجِرِهم » .

وما أظن أن في سلوك الرسول الكريم ـ صلوات الله عليه ـ وسيرته الطاهرة ما يشعر أنه فضّل طائفة على أُخرى بغير التقوى والصلاح .

لقد درج الباحثون على تكرار هذا الرأي في فصاحة اللغة القرشية، وقد اتفق في ذلك القدامى والمحدثون . وليس لي أن أفهم أن لغة عظيمة يدرج بها جمهور كبير من الناس تبقى بنجوة لا يشوبها دخيل ، ولا ينال منها ما ينال الأمة التي قُيِّضَ لها أن تختلط بغيرها من الأمم . لقد كان لقريش مكانة أيّ مكانة في بدوها وحضرها ، فهي في البدو كبيرة تشغل أمكنة فسيحة واسعة ، وهي في الحضر أمة متحضرة مستقرة ، بيّدها الخير كل الخير من

سدانة الكعبة ورعاية الحاج والتجارة العريضة بيعاً وشراءً . وكان من ذاك أنها مقصودة مطلوبة يأتيها الناس عرباً وغير عرب . فهل ترى أن لغة تعرض لها مثل هذه الظروف والأحوال تحتفظ بفصاحتها ونصاعتها ؟ هذا ما لا يقر به العلم اللغوي قديماً وحديثاً .

أكبر الظن أن المؤرخين درجوا على ترداد هذه المقولة لمكان النبي ﷺ من قريش ، وأنه القائل : « أنا أفصح من نطق بالضاد بَيْدَ أني من قريش » فذهبوا إلى أن المراد بـ « بَيْدَ » « لأني » . ولو وجّهوا التأويل وجهة أخرى ، وفسروا « بَيْدَ » بـ « غير » مثلاً لما تمت لهم هذه المقولة .

قال الكسائي : « قوله بيد معناه غير » . ثم إنك تقرأ تتمة الحديث الشريف : « ونشأت في بني سعد » . وهذا يعني أن الرسول ـ صلوات الله عليه ـ أراد أن يقول : إن لنشأتي في بادية بني سعد أثراً في الفصاحة التي أتصف بها على أني من قريش ،

ولْننصرف عن هذا الموضوع إلى شيء آخر يتصل بالتقسيم الذي أسلفت الكلام عليه وهو العربية الفصيحة . والفصيحة غير الفصحى ، وهي من غير شك دونها منزلة ، وكيف نساوي بين لغة الشعر العالية ، ولغة الخطب والرسائل في صدر الإسلام من جهة ، ولغةٍ أخرى لايراد منها إلا الإبلاغ والإخبار كالرسائل الديوانية وما يتصل بها من أمرٍ ونهيٍ ورسم حدود وأحكام من جهة أخرى ؟ وهل لنا أن نعد لغة العلوم التي يراد منها إيصال ضرب من المعرفة مساوية للغة الشعر والخطب الأدبية ؟

إن لغة العلوم والرسائل الديوانية وما يجري مجراها هي من الفصيح ، وليس من الفصحى . ثم ماذا في النمط الثالث الذي وسَمناه بالسائر الدارج ؟

لا شك أن أوْجُهَ الإعراب عن الشؤون اليومية ، وما يدرج في لغة

الخاصة سحابَة يومهم ، هو من هذه اللغة الدارجة السائرة التي يستعمل فيها كثير من فصيح العربية بشيء من التوسع والاتساع في الدلالة ، والإيجاز في الجملة وبنائها ، والتخفف من أساليب القول في الاستفهام والنفي وغير ذلك .

إن هذا ليس من الفصحى بله الفصيحة ، بل هو نمط سائر دارج لا بد منه في أية لغة من اللغات . ونتحدث عن العامية ، وكأنها نمط واحد عَدِمَ الإعراب ، وتخففَ من حركات البناء الصرفي ، ولزمَ أصواتاً خاصة نفتقدها في الأنماط الأخرى ، أو قل : أصواتاً أعجمية لا نعرفها في العربية .

أقول : ليس هذا إلا خصائص يسيرة من الكلام العامي . إن العامية ليست نمطاً واحداً ، بل هي « عاميّات » . ثم إنها لغات خاصة ، ذلك أن أيةً منها تتصف بما يشترط أن تتصف به اللغة في علم اللغة الحديث. هي أداة للتعبير والإعراب عن الحاجة اليومية ، ثم الحاجات الأخرى مما هو متصل بالمعاني والأفكار . وما أظن أن هذه إن عَرِيَتْ عن الإعراب واتّصفت بصفات خاصة كانت عامية . أريد أن أقول : إن الأنماط العامية سلوك لغوي يتصف بصفات خاصة من حيث الدلالة ، فأنت لا تجد في الأنماط العامية أدباً يفي كثيراً بالأغراض التي تفي بها اللغة الفصحى ثم الفصيحة . وإنها تفتقر فيما تفتقر إليه ، لكثير من صفات العربية الفصيحة ، وإنها تخضع لنمط خاص من التطور ليس إيجابياً في كثير من أحواله . ثم إن هذه العاميات وسائل ناقصة إذ ما أريد منها أن تفيَ بحاجات العصر . وهي بعد هذا كلّه ذات مسيرة خاصة يعرض لها الزمان والمكان فينالان منها فلا تبقى ثابتة ، إنها تتغير بين حقبة وأخرى . وهذا يعني أن كثيراً من الألوان اللغوية العامية قد عَفّى عليه الزمان . وقد يكون انتفاء الحاجة سبباً في هذا ، كما أن تغيُّر الظروف والأحوال وتبدُّل سبُل العيش وطرائق التفكير ما يدعو إلى أن تكون العامية اليوم مثلاً غيرها بالأمس .

إنك لتدرك وأنت تستقرىء هذه الألوان العامية ، أن كثيراً منها فني في بريق فصيحة سائرة دارجة تشيعها وسائل الإعلام ، وانتشار العلم والمعرفة . ولا شك أن شتاتاً كثيراً من الإعراب العامي في ريف العراق الجنوبي قد امّحى ، وأن مادة فصيحة حلّت محله في معجم القرويين في أريافهم التي لم تبقَ كما كانت عليه منقطعة معزولة . ومثل هذا يقال في لغة سائر القرويين في العراق وغير العراق من بلاد العرب .

وإذا كانت هذه العاميات قد عريت عن الإعراب ، فليس ذلك خَصيصةً من خصائصها ، ذلك أن الإعراب قد أكتسب هذه الميزة في الفصحى والفصيحة بعد توفر خصائص أخرى تجعل هذه الأنماط اللغوية تنفرد عن العاميات . ولولا مادة من تراث غال هو لغة التنزيل العزيز وحديث رسول الله ﷺ ، وأدب قديم بفنونه المختلفة ، لَعريت العربية المعاصرة عن هذه الخصيصة اللغوية التي لا شك أنها بدأت حاجة صوتية يتطلّبها كمال الأداء ثم انتهت إلى مَيزة خاصة بعد أن استقرت في حدودٍ وضوابط خاصة .

ولا يغربنّ عن ظننا أن العربية السائرة طوال العصور قد عريت عن الإعراب في حديث الناس وحوارهم . إننا لنلمح هذا في كثير مما نتسقَّطه من الأخبار والإشارات في كتب الأدب والتاريخ . ولعل من أهم الوثائق التي لا بد منها للباحث في تاريخ العربية أن يقف عليها هي « القراءات » ، ولا سيما ما وُسِمَ منها بـ « الشواذ » . إن هذه القراءات مصدر مهم يدلنا على أن هذه العربية الفصحى أو الفصيحة نمط خاص ، وأن القوم في ماضيهم كما هم في حاضرهم يتخففون في درج الكلام ، وربما تجاوَزوا ذلك إلى غيره من ألوان التعبير والإعراب الأخرى وعلى هذا كان الدرس القرآني من أهم المواد التي بها نستدل على تاريخ هذه اللغة وكمالها وإدراكها من السمو والكمال قدراً لا نجد شيئاً منه في اللغات الأخرى التي سبقتها في بلادنا - حرسها الله تعالى - .

لقد آمن المسلمون أن التنزيل العزيز معجزة النبي ﷺ ، ويكاد جمعهم يتفق على أن الإعجاز في لفظه ونظمه ومعانيه . وقد يختلفون في أفراد هذه المواد في أيها أدل على الإعجاز .

جاء في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوْا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[1] . وقوله عز من قائل : ﴿ فَأْتُوْا بِسُورَةٍ مِن مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . ﴾[2] .

ومن أجل هذا أقبل عليه أهل العلم دارسين وباحثين ، فعرضوا له ، ووقفوا على مسائل كثيرة تتصل بـ « علم القرآن » . ولم يكن هذا الدأب من الدرس مقصوراً على المسلمين وحدهم ، بل تجاوزهم إلى غير المسلمين ، بحيث تهيأ لهذا الكتاب العظيم جمهرة من الدراسات تؤلف خزانة عامرة بالنفائس من المصادر والمراجع .

لقد عنيَ المسلمون بلغات القرآن ومعرفة الكلم فيه معرفة تتصل بحروفه وأصواته وعدد كلماته وآياته وسوَره وأحزابه وأنصافه وأرباعه . وقد شغل كل نفر بما هو من شأنه ومادّته من القرآن ، فذهب جماعة إلى لفظه ومجازه ، وذهب آخرون إلى معرفة تلاوته وكيف يُبْتَدأُ فيها وكيف يُوقف ، وأين يمدُّ الصوتَ وأين يَقصره ، ومتى يُرقِّق ومتى يُفخِّم ، وكيف يفصل وكيف يصل . ولقد تهيأ من ذلك أن يكون للمسلمين فن في التلاوة وتجويدها ومعرفة بالأصوات ، حقائقها وصفاتها وأحيازها ومخارجها . وكان من ذلك أن غنيَ المعجم العربي بما عرف من معاني القرآن في « مجازه » و «غريبه » و « مشكله » . وكان من ذلك أيضاً غَناء عِلم العربية في ما يُسمى

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٣ .

في عصرنا بـ« عِلم الأصوات»، وكان من ذلك عِلم النحو وما يعرض للكلم في مواضعها المختلفة بحيث يكون لكل منها حال خاصة يتبيّن بها المعنى المراد . وإذا كان من ثمار هذا الكدّ المبارك عِلم النحو فطبيعي أن يكون منه ما يتصل بالكلمة وبنائها وإفرادها وتثنيتها وجمعها وما يعرض لها من تغيير وحذف وزيادة وهي المواد التي اصطلح عليها « عِلم الصرف » .

قلت : إنهم بحثوا في « مجاز القرآن » لغة ، ومن غير شك أنهم تجاوزوا الجانب اللغوي إلى ما يُسمى بـ « الجانب البلاغي » سعياً وراء التماس وجوه « الإعجاز » الفني . ومن هنا نشأت علوم البلاغة العربية أو قل نشأ « النقد الأدبي » عند العرب قبل أن يطّلعوا على الإنجازات الإغريقية .

قلت : لقد عنيَ المسلمون بالقرآن عناية فائقة ، فمن ذلك كثرة مصنَّفاتهم لدرس لفظه ومعناه . ولعل من المتقدمين ممن دأبوا على التصنيف ، واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ للهجرة ، والذي أدرك شطراً من الربع الأخير من القرن الأول الهجري ، فقد صَنَّفَ في « معاني القرآن » كتاباً كما تشير مصادر الرجال[١] .

ومن المهم أن أشير إلى أن للّغويين الأوائل مشاركة واضحة في « علوم القرآن » ولا سيما ما اتصل بلفظه ومعناه ، فقد صَنَّفَ مؤرّج بن عمر السدوسي المتوفى سنة (١٩٥ هـ) كتاباً في «غريب القرآن»[٢]، وقد أشار ابن النديم في « الفهرست » الى كتاب « معاني القرآن » لأبي علي محمد بن المستنير الشهير بـ « قطرب » المتوفى سنة (٢٠٦ هـ) ، كما أشار إلى أن لأبي عُبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة (٢١٠ هـ) كتاباً في « مجاز

---

(١) الأعلام للزركلي : ١٢١/٩ - ١٢٢ .

(٢) الفهرست لابن النديم (نشر المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة) ص ٧٧ .

القرآن » وآخر في « غريب القرآن » ، وكتاباً في « معاني القرآن »[1] وقد أفرد ابن النديم مكاناً خاصاً لجملة من المتقدمين ممن ألّفوا في مادة « معاني القرآن » غير هؤلاء الذين أشرنا اليهم[2] .

على أن لكلٍ من أولئك العلماء المتقدمين فهماً خاصاً ومنهجاً خاصاً في تناول الموضوع ، قال الإمام الطبري في « جامع البيان »[3] : وكيف تتساوى العرب في فهمه وفيه مثل ما في كلامها من «الإيجـــاز والاختصار والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار وبالقلة من الإكثار، في بعض الأحوال ، واستعمال الإطالة والإكثار والترداد والتكرار وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها ، والإسرار في بعض الأوقات ، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر ، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر ، وعن الكناية والمراد فيه المصرّح ، وعن الصفة والمراد الموصوف . . . . » .

وإلى مثل هذا كان ابن قتيبة قد أشار في « تأويل مشكل القرآن » ، وهو أن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من الغريب والمتشابه ، وفي « مجاز القرآن »[4] لأبي عُبيدة شيء من هذا فهو يرى أن لا بد من الاختلاف في فهم اللفظ ومعناه في القرآن ، وذلك لأن في القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ومن الغريب والمعاني .

وعلى هذا فقد كان لكلام الله العزيز أثر كبير في تعدد الدراسة القرآنية وما أدّت إليه من العلوم المختلفة . لقد عنيّ المتقدمون مثلاً بدراسة « الحقيقة والمجاز » ، وما أظن أن مصدراً من المصادر خير من كتاب الله في

---

(١) الفهرست لابن النديم : ص ٨٤ ـ ٨٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ٥٧ ـ ٥٨ .
(٣) جامع البيان : ٧/١ .
(٤) مجاز القرآن : ٨/١ .

تبيان الحقيقة وإطلاق اللفظ موصوفاً وصفةً على الحقيقة حيناً ، وعلى المجاز أحياناً أُخرى .

ومن هنا كان البحث في الألفاظ الإسلامية ، أو قل في ألفاظ القرآن شيئاً لازماً لكل لغوي في كل عصر . إن الألفاظ الإسلامية لتعد أول تجربة ناجحة للمصطلح العلمي في تاريخ العربية العريقة . لقد أُتيح لهذه اللغة أن تشتمل على معجم جديد في المصطلح الإسلامي . وقد فطن العلماء الأوائل المعنيون بدراسة القرآن إلى هذه المادة الجديدة في تاريخ العربية فعرضوا لها في كتب « المجاز » أو « الغريب » أو غيرها . ولا بد أن نشير إلى كتاب « الزينة » لأبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، الذي يُعد من المصادر المهمة في شرح دلالة الألفاظ الإسلامية .

وقد يكون بدءاً لهذا المصطلح أن ينطلق الباحث مثلاً من مادة «الإسلام» فيتجاوز فيها الأصل اللغوي لينصرف الى هذا المصطلح الغني بالفوائد اللغوية والتاريخية والفكرية . وقد ينطلق من مصطلح « القرآن » فيتجاوز الأصل اللغوي إلى هذا الحدث العظيم في تاريخ الإنسانية طوال عصورها المتوالية. حتى إذا تحوَّلَ هذا الباحث إلى أركان الإسلام فبحث في الصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد ، أدرك أن الإسلام في كتاب الله دفع بالعربية السمحة خطوات فسيحة لا يمكن أن تدركها لغة من اللغات .

ويحسن بنا أن نبدأ بعد هذه المقدمة في كلام الله العزيز أن نبحث في « المجاز » فنقرر بادىء ذي بدء أن « المجاز » مادة لغوية قبل أن يعرض لها أهل البيان والنقد . كما أننا نقرر أن جملة المعاني والأفكار هي في أغلب الأحوال مجـازات انقطعت صلتها بالحقائق التي دلّت عليها . وهذا يعني أننا قد نجد الحقيقة والمجاز في الكلمة الواحدة متجاورتين ، يذهب كل منهما مذهباً خاصاً ، وقد نجد اللفظة وهي مجاز معروف مشهور ولا نرى أصلها الحقيقي ، وهذا يعني أن المجاز قد اشتهر حتى عُدّ حقيقة من

الحقائق وضاع الأصل الحسّي لهذا المجاز فيما ضاعت أصول كثيرة . ولا بد أن نعرض لأولئك المتقدمين لنرى كيف وقفوا على المجاز وكيف قالوا فيه .

من أوائل الذين تصدوا لهذا العمل اللغوي ، عبد الله بن عباس في التفسير المعروف بـ « تنوير المقباس »[1] . ولا أريد أن أبحث في صحة نسبة الكتاب إلى ابن عباس فقد قيل فيه ما قيل ، وإن المآخذ عليه كثيرة تجعل النسبة غير صحيحة . وسواء كان هذا الكتاب لابن عباس أم لغيره فإنه من غير شك لأحد المتقدمين ، وأكبر الظن أن الباحثين لم تشغلهم هذه المسألة لعلمهم أن ابن عباس كان من أهل القرآن ، وكان يعرف الكثير من معانيه ، فهو الذي تُنسب إليه الأجوبة المشهورة التي تقدّم بها إليه نافع بن الأزرق ، وأنه كان إلى جانب ذلك عالماً بالشعر وكلام العرب .

غير أننا نجد في التفسير المنسوب إليه أنه لم يدرك من المجاز إلا الإتيان بالمعنى ، فهو حين يشرح مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾[2] يقول إن معناه : « في شدائد القبر » ، وهو يقول في قوله تعالى : ﴿ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ﴾[3] : إنهم « لم يربحوا في تجارتهم بل خسروا » .

إن جميع كتب « المجاز » الخاصة بلغة القرآن ، ومثلها كتب « الغريب » تنزع منزعاً لغوياً ، والمجاز فيها هو إيضاح المعنى المراد للكلمة في الآية . يتضح هذا في « مجاز القرآن » لأبي عُبيدة و « غريب القرآن » لابن قتيبة وسائر الذين صَنّفوا في « مجاز القرآن » .

---

(١) لقد جمع هذا الكتاب محمد بن يعقوب الفيروزابادي صاحب « القاموس » .
(٢) سورة البقرة : الآية ١٧ .
(٣) سورة البقرة : الآية ١٦ .

ولعل كتاب « الزينة » لأبي حاتم الرازي الذي ألمعنا إليه ، من خير المظانّ في هذه المجازات الإسلامية . لقد اشتمل على ما يقرب من أربع مئة كلمة من الكلمات الإسلامية التي وردت في كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وقد عرض لها المصنّف شارحاً مُبيِّناً أصولها ودلالتها . ومن هنا تتجلى أصالة هذا الكتاب في بيان تطور الألفاظ وتحوّلها من الحقيقة بضرب من التوسع إلى دلالات أُخرى . وقد عرض للألفاظ الدخيلة ودلّ على أصولها في اللغات الأُخرى ، وعلى هذا يعد أبو حاتم الرازي من أوائل من أشار إلى هذا الباب في العربية ، كما نص على الأسماء الأعجمية التي وردت في القرآن وما كانت عليه في الجاهلية واستشهد عليها بالشعر وما ذكره أهل التفسير .

لقد نشر من هذا الكتاب الجليل ثلاثة أقسام ، وهو شيء يسير من مجموع مادة الكتاب في مخطوطاته . نشر الأستاذ الدكتور حسين الهمداني قسمَين من الكتاب هما الأول والثاني ، ونشر الدكتور عبد الله سلّوم السامرائي قسماً ثالثاً يتصل بأصحاب الأهواء والمذاهب والفِرَق وجعله صلةً بكتابه «الغُلُوُّ والفِرَق الغالية في المذاهب الإسلامية » (بغداد ، دار الحرية ١٩٧٣) .

أما القسمان اللذان اضطلع الدكتور الهمداني بنشرهما فهما موضوع مادتنا اللغوية التي وضعها المصنف أبو حاتم مما وجده في كتاب الله من الكلم الإسلامي القديم . وكأن القسم الأول فاتحة للكتاب أو مقدمة كما نقول الآن ، وهو يشتمل على معاني الأسماء واشتقاق الكلم الإسلامي والبحث في أصولها . وقد عرض في هذه المقدمة التي استوفت مادة هذا القسم الأول لمسائل جعلها في عنوانات هي :

فضل لغة العرب .
أُمة العرب تامة الحروف .

النقصان والزيادة في اللغات .
قوام العربية وبنيَتها بالحساب .
قانون اللغة العربية .
بلاغة العربية .
النحو والإعراب .
معنى العروض .
الشعر ديوان العرب .
مزايا الشعر العربي قبل مبعث النبي .
الشعر والشعراء عند ظهور الإسلام .
تعلّم اللغة والشعر الأول .
الأغاني القديمة بالفارسية .
الفرق بين الشعر والغناء .
الأسماء الإسلامية ومعانيها .
أسماء الله الحسنى .
أسماء الأشياء ومعانيها .
الأسماء الأعجمية في القرآن .
ظهور الأسماء على عهد النبي .
لسان إبراهيم السريانية .
تعلّم إسماعيل العربية من اليمن .
إسماعيل أول من تكلم بالعربية .
لغة القرآن هي لغة قريش .
اليهودية والنصرانية والمجوسية في العرب .

ثم نأتي إلى القسم الثاني فنجده مشتملاً على :

باب ما جاء في « بسم الله الرحمن الرحيم » . وهو في هذا يعرّف بأسماء الله الحسنى التي وردت في كتاب الله الكريم .

ثم انتقل بعد الكلام على هذه المواد الكثيرة مما يتصل بالذات الإلهية العلية إلى الكلام على مواد أخرى تستوفي الجزء الثاني برمّته وهي :

« القضاء » ، « الدنيا والآخرة » ، « القلم » ، « اللوح » ، « الكرسي » ، « العرش » ، « الملائكة » ، « الجن والإنس » ، « الشيطان وصفاته » ، « إبليس » ، « الجنة وصفاتها » ، « النار وصفاتها » ، « الصراط » ، « الأعراف والبرزخ » ، « الثواب » ، « العقاب والعقوبة » ، « الإثم والوِزْر » ، « القيامة » .

إن جملة هذه الموضوعات والمواد التي اشتمل عليها القسمان الأول والثاني من كتاب « الزينة » تؤلف معجماً في الألفاظ الإسلامية ، وهو على نحو لم نجده في مصنّفات معاصري أبي حاتم ولا في مصنّفات من تقدّمه من علماء اللغة الذين عنوا بالقرآن عناية خاصة .

وقد جعلت هذه الدراسة التي وسَمتها بمادة « **من وحي القرآن** » في بابين ، الأول منهما ينصرف إلى الجانب اللغوي التاريخي مشتملاً على شيء من تاريخ القرآن كما يتبيَّن في القراءات القرآنية . كما يعرض لموادَّ خاصة تتصل بنحو القرآن .

وهذه المواد تقدّم لدارس النحو التاريخي قيمة كبيرة لو أحسن الوصول إليها بمعزل عما بدا من ذلك للنحاة المتقدمين ، ومادة هذا الباب تنتظم فصلين .

أما الباب الثاني فيعرض لفصول تتصل بنظم القرآن ومكان الكلمة والجملة في كلام الله ـ جلّت قدرته ـ، كما يعرض لموضوع الدلالة والتطور ، وشيء يتصل بالعربية في بيئتها ، ثم كيف ينبغي أن يؤدّى هذا الأدب العالي قراءةً وتلاوة .

إن مادة هذا الباب الثاني تؤلف ستة فصول أخلص بعدها إلى خاتمة قصيرة .

الدكتور ابراهيم السامرائي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

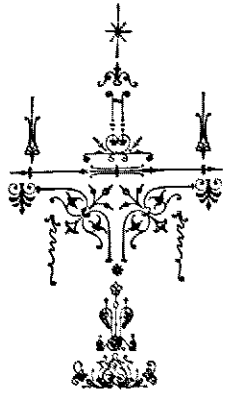

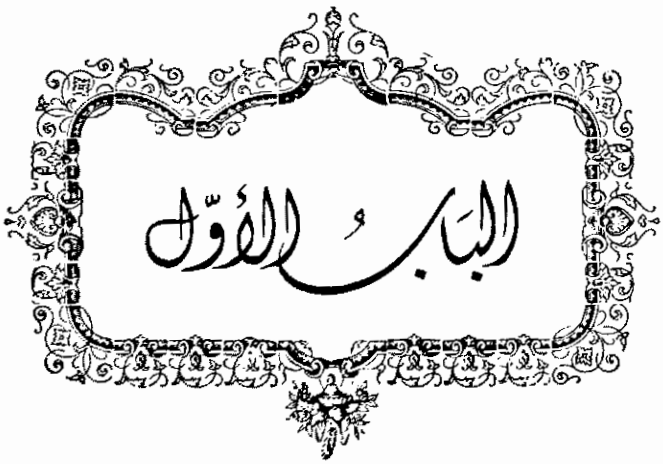
الباب الأول

الفصل الأول

أبنية وأصوات

لا بد للباحث في العربية التاريخية وأصواتها القديمة من فحص مواده التي يقوم عليها بحثه . وهذه المواد التي يصح أن تكون الأصول الأولى للعربية هي كلام الله في قرآنه . ولا أريد أن أدخل في مشكلة نصوص العربية القديمة في الأحقاب التي سبقت الإسلام . إن لغة الشعر الجاهلي لا يمكن أن تعطي الباحث الوثائق التاريخية التي يهتدي بها إلى العربية القديمة في ألوانها ولغاتها المختلفة . ولا أريد أن أدخل في مسألة انتحال هذا الشعر وما عرض له بسبب الرواة خلال القرون التي أعقبت ظهور الدعوة الإسلامية . ولا أريد أن أعرض كذلك لهذه اللغة الفصيحة المهذبة التي تشعر الباحث أن أصحابها من طينة واحدة ومن بيئة واحدة .

وبسببٍ من هذه الحيرة في بيئة قديمة لا يهتدي السالك فيها إلا إلى ظلمة يعسر الخروج منها ، لا بد من اتخاذ العربية في كتاب الله العزيز المادة التي أنظر منها إلى تاريخ هذه اللغة وكيف انتهت إلى ما نسميه العربية الفصيحة .

ما زال الموضوع مفتقراً إلى شيء من بحث جديد بالرغم من كثرة الدراسات التي تناولت القرآن . لقد عنيَ الأقدمون بكتاب الله حتى آلت عنايتهم إلى ما سُمّيَ بـ « علوم القرآن » ثم عنيَ الأعاجم من المستشرقين

بالموضوع نفسه عناية فائقة ونظروا إلى القرآن نظرة تبتعد عن نظرات المسلمين ، وانتهت جهودهم إلى نتائج ترضي العلم حيناً وتبتعد عنه حيناً آخر . ولا يهمني هذا الأمر فقد تصدى للحملات التي شُنَّتْ على الإسلام عامة كثير من المسلمين وغيرهم . ولكن فوائد كثيرة حصلت ضمن مباحث هؤلاء وهؤلاء . وهي ولا شك ما زالت مفتقرة الى نتائج أُخرى .

إن مشكلة آي القرآن في سوَره المعروفة مشكلة كبيرة ، فقد تم جمعٌ أول في خلافة أبي بكر ، وقام به زيد بن ثابت بمشورة من عمر بن الخطاب الذي احتج بأن جمعاً من القرَّاء قد قُتلوا في يوم اليمامة وخشيَ أن يذهب عدد أكبر « إن استمر القتل بالقرَّاء في المواطن . ثم تهيَّأ لكتاب الله الكريم أن يُجمع في خلافة عثمان ، وقد ندب عثمان لهذه المهمة ثلاثة من أكابر القرَّاء من المكيين وهم : عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وواحداً من المدنيين وهو زيد بن ثابت . وقال عثمان للرهط القُرشيين : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قُريش فإنه إنما نزل بلسانهم »[1] .

والذي نعرفه أن في القرآن لغات عدة غير لسان قريش ولا أرى حاجة إلى التدليل على هذا ، فكتب القرآن وتفسيره تؤيد هذا .

ولقد استبعد في جمع القرآن مصحف عبد الله بن مسعود وهو أشهر القرَّاء وقد سمع من رسول الله ، وقد جاء في الأخبار أن الرسول كان يطريه ويوقِّره ويقربه منه ويؤيده فيما يأخذ عنه[2] وقد تهيأ لهذه الجماعة أن جمعت المصحف العثماني الإمام وقد أتى هذا العمل العظيم على الاضطراب الذي

---

(١) أنظر صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، الباب الثاني والباب الثالث ، الإتقان ١٠٢/١ ، المصاحف لابن أبي داود ص ١٨ ، تفسير الطبري ٢٠/١ ـ ٢١ .

(٢) انظر غاية النهاية ٤٥٨/١ (ترجمة عبد الله بن مسعود) .

أوشك أن يختلف فيه المسلمون « ويكفِّر بعضهم بعضاً »[1] .

ثم كانت القراءات وكان حديث الرسول المشهور في الأحرف السبعة « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسَّر منه » . وكثر الكلام في الأحرف السبعة وما تؤدي إليه[2] .

ولم تكن عملية الجمع التي أدت إلى المصحف العثماني بمبعدة للمصاحف الأخرى ، فقد ظل مصحف عبد الله بن مسعود ومصحف أُبَيّ بن كعب . وقد أبى عبد الله بن مسعود أن يحرق مصحفه أول الأمر وحمل على مصحف عثمان ، وعرَّض بزيد بن ثابت الذي كان في صلب أبيه حين اعتنق هو الإسلام . وإن زيداً كان يلعب مع الصبية حين كان هو يحفظ بعضاً وسبعين سورة أخذها كلّها من فم رسول الله ﷺ[3] .

ومن الطبيعي أن يكون في مصحف ابن مسعود ومصحف أُبَيّ بن كعب من القراءات المختلفة . غير أن العملية تمّت وأحرق ابن مسعود مصحفه ، وكأن مصحف عثمان كتبت له السيرورة . غير أن شيئاً لم تقض عليه عملية المصحف العثماني وهو القراءات الكثيرة وسنأتي على هذا الموضوع .

يكرر المعنيون بالدراسات القرآنية ان القرآن جاء بلسان قُريش وهذه مقولة لا نجد لها مكاناً واضحاً يحققه البحث العلمي . لقد ذهب نفر من اللغويين القدامى إلى أن المراد بالأحرف السبعة لغات معيّنة هي لغات قريش وهذيل وتميم والأزد وربيعة وهوازن وسعد بن بكر[4] . وذهب آخرون إلى أن

---

(١) انظر تفسير الطبري ١/ ٢١ ، وانظر الإتقان ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣ ، والمقنع للداني ص ٨ .

(٢) كتاب المصاحف لابن أبي داود ص ١٢ .

(٣) وإلى هذا ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام وأحمد بن يحيى ثعلب . انظر : البرهان للزركشي ١/ ٢١٧

(٤) انظر الإتقان ١/ ٨١ ، البرهان ١/ ٢١٩ .

المراد بها لغات قبائل مضر خاصة وهي : هذيل ، وكنانة ، وتيم الرباب ، وأسد بن خزيمة ، وقريش[1] . والذي نعرفه أن في القرآن من لغات القبائل الأخرى مادة كبيرة ، فقد أحصى أبو بكر الواسطي منها أربعين لغة في كتابه « الإرشاد في القراءات العشر »[2] وضرب أمثلة كثيرة ونماذج مفيدة عرض لها السيوطي في « الإتقان »[3] .

ويبدو لنا من هذه النصوص أن مسألة « لسان قريش » ينبغي ألا نأخذها مأخذاً ثابتاً ، فقد جاء في البرهان على لسان أبي عمر بن عبد البر الذي قال : « وأنكر آخرون كون كل لغات مضر في القرآن ، لأن فيها شواذ لا يقرأ بها مثل كشكشة قيس وعنعنة تميم . . . وهذه لغات يرغب بالقرآن عنها »[4] .

وقد استبعد ابن عبد البر أن يكون معنى « سبعة أحرف » سبع لغات فقال : (لأنه لو كان كذلك لم ينكر القوم بعضهم على بعض أول الأمر ، لأن ذلك من لغته التي طبع عليها . وأيضاً فإن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم كلاهما قُرشي ، وقد اختلفت قراءتهما ومحال أن ينكر عليه عمر لغته) .

وقد عني اللغويون الأوائل عناية فائقة بمادة « اللغات » عامة وبلغات القرآن خاصة والذي نعرفه أن ليونس بن حبيب (المتوفّى سنة ١٥٢ أو ١٨٢ هـ) « كتاب اللغات » وللفرّاء (المتوفى سنة ٢٠٧ هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى سنة ٢١٠ هـ) وأبي زيد الأنصاري (المتوفّى سنة ٢١٤ هـ) كتباً في « اللغات » ولأبي زيد أيضاً كتاب في « لغات القرآن » وقد نسب

---

(١) انظر الإتقان ١/٢٣٠ .

(٢) المصدر السابق ١/٢٢٧ (النوع السابع والثلاثون فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز) .

(٣) البرهان ١/٢١٩ .

(٤) المصدر السابق .

إلى الأصمعي (المتوفى سنة ٢١٦ هـ) « كتاب اللغات » ومثل ذلك قد نسب إلى ابن دريد (المتوفى سنة ٢٢٣ هـ) . أما في « لغات القرآن » فمنه كتاب « ما ورد في القرآن من لغات القبائل » لأبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي (المتوفى سنة ٢٢٣ هـ) « وكتاب اللغات في القرآن الكريم » رواية إسماعيل بن عمرو بن حسنون المقرىء (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) عن ابن عباس ، و « كتاب اللغات » لابن بري (المتوفى سنة ٥٨٢ هـ) .

وقد وصل إلينا من هذه المصنَّفات رسالتان : إحداهما رسالة أبي عبيد القاسم بن سلاَّم « فيما ورد في القرآن من لغات القبائل »وقد طبعت على هامش كتاب « التيسير في علم التفسير » للدريني سنة ١٣٠١ هـ ، وأعيد طبعها على هامش تفسير الجلالين سنة ١٣٥٦ هـ . والرسالة الثانية هي « كتاب اللغات في القرآن » رواية إسماعيل بن عمرو بن حسنون المقرىء عن ابن عباس ، وقد طبعت بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجِّد مرتين : الأولى عام ١٩٤٦ ، والثانية عام ١٩٧٢ م .

ولقد حفلت معجمات العربية بمادة اللغات ، وربما كانت « الجمهرة » من أهم المصادر فيما ينسب في العربية إلى لغات اليمن .

واهتمام اللغويين باللغات التي وردت في المصحف والاتساع في القراءات يشعرنا أنّ مسألة مجيء النص القرآني بلسان قريش شيء درج عليه الباحثون المتقدمون . وقد اهتم بجمع القرآن أبو بكر وعمر وعثمان وأيدهم عليّ بن أبي طالب فهو القائل : « رحم الله أبا بكر ، هو أول من جمع كتاب الله بين اللوحين »[1] ، وقد جاء في « الإتقان » أن سعيد بن غفلة قال : قال عليّ : لا تقولوا في عثمان إلا خيراً فوالله ما فعل في المصاحف إلا

---

(١) البرهان ١/٧٣٩ ، المصاحف لابن أبي داود ص ٥ .

عن ملأ منا »[1]، وقال أيضاً « لو وليت ما وليَ عثمان لعملت بالمصاحف ما عمل »[2]. وكأن هؤلاء الأئمة الكبار قد أحسّوا أن المسلمين سيختلفون اختلافاً كبيراً في كتاب الله يوشك أن يؤدي إلى شر عظيم فعمدوا إلى جمعه وحفظه . وقد دأبوا على مقولتهم المشهورة : أن كتاب الله أُنزل بلسان قريش وذلك ليكوِّن المسلمون إجماعاً عليه خشية أن تتفرق كلمتهم إلى شيَع وأحزاب .

إن عمر كان ينظر إلى هذا الهدف حين «سمع رجلاً يقرأ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾[3]، فقال : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود . فكتب إليه : إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش ، فاقرىء الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل . والسلام »[4]. ويبدو أن حرص عمر بن الخطَّاب على كلام الله وحرص سائر الخلفاء أبي بكر وعثمان وعليٍّ على الموضوع نفسه جعلهم يتشبّثون بهذه المقولة ليبعدوا الألسنة المختلفة المتعددة على آي القرآن ، وألاّ تجد طرائق في التعبير سبيلها إلى كلام الله حفاظاً على وحدة المسلمين وجمعاً لشملهم .

ولقد ظل هذا ديدن الحاكمين وأولي الأمر في المجتمع الإسلامي دهراً طويلاً . ومن أجل ذلك نرى ابن شنَبوذ من أصحاب القراءات واشتهر ببغداد في أنه يقرىء الناس ويقرأ في المحراب بحروف يخالف فيها المصحف عما يروى عن عبد الله بن مسعود وأُبَيّ بن كعب وغيرهما مما كان يقرأ به قبل جمع المصحف الذي جمعه عثمان بن عفان . يتبع (الشواذ) فيقرأ بها

---

(١) الإتقان ١/١٠٣ .

(٢) البرهان ١/٢٤٠ .

(٣) سورة يوسف : الآية ٣٥ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ٢/٤٦٨ .

ويجادل حتى عظم أمره وفحشه وأنكره الناس . فوجه السلطان فقبض عليه يوم السبت لِست خَلون من ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وحمل إلى دار الوزير محمد بن علي - يعني ابن مقلة - وأحضر القضاة والفقهاء والقرَّاء وناظره - يعني الوزير - بحضرتهم فأقام على ما ذكر عنه ونصره واستنزله الوزير فأبى أن ينزل عنه . . . فضرب بالدرة على قفاه ضرباً شديداً . . .[1] مع أنه من الثقات في القراءات . ومن المعلوم أن ابن شَنبوذ هذا كان لا يرتضي صنيع أبي بكر بن مجاهد من شيوخ الإقراء في عصره ، فلقد صنَّف هذا القراءات في سبع واشتهرت هذه القراءات السبع . وهذا يعني أن طرائق القراءات المختلفة بقيَت معروفة يتداولها المقرئون بحيث اضطر ابن مجاهد إلى صنيعه هذا فأقرَّه أولو الأمر وشاعت السبع[2] . ويبدو أن طرائق القراءة قد تجاوزت هذه السبع المشهورة فكتبوا المصنَّفات في العشر منها[3] ثم كتبوا في القراءات الاثنتي عشرة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد نشط اللغويون القدماء فكتبوا المصنَّفات في الشواذ من القراءات كما فعل ابن خالويه[4] وابن جنِّي[5] ، فقدكان للأول كتاب « مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع » وللثاني كتاب « المحتسب » في القراءات الشواذ .

لقد اهتم اللغويون بهذه القراءات التي أُطلق عليها ، الشواذ ، اهتماماً كبيراً . وكأنها سُميت الشواذ لابتعادها عن القراءات المشهورة السبع أو العشر . ولكنها من غير شك قراءات صحيحة عنيَ بها جماعة من العلماء

---

(١) الخطيب : تاريخ بغداد ١/ ٢٨٠ ، وانظر طبقات القراء لابن الجزري ٢/ ٥٢ .
(٢) التيسير في القراءات السبع للداني (استنبول : سلسلة نشريات المكتبة الإسلامية) .
(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، المكتبة التجارية في القاهرة .
(٤) مختصر البديع لابن خالويه طبع القاهرة (المطبعة الرحمانية سنة ١٩٣٤) .
(٥) المحتسب لابن جنيٍّ (من مطبوعات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة) .

الثقات . وهذا يعني أن اللغويين لم يأبهوا بما يحرص عليه أولو الأمر من وجوب التمسك بعدد قليل من القراءات .

يقول ابن جنّي في « المحتسب » : « . . . . . ضربين » ، ضرباً اجتمع عليه أكثر قرّاء الأمصار ، وهو ما أودعه أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد[1] ، رحمه الله كتابه الموسوم بقراءات السبعة ، وهو بشهرته غانٍ عن تعديده . وضرباً تعدى ذلك ، فسَمّاه أهل زماننا شاذاً ، أي خارجاً عن قراءة القرّاء السبعة المقدم ذكرها ، إلا أنه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرّائه ، محفوف بالروايات من أمامه وورائه ، ولعله ، أو كثيراً منه مساوٍ في الفصاحة للمجتمع عليه . نعم وربما كان فيه ما تلطف صنعته وتعنف بغيره فصاحته ، وتمطوه قوى أسبابه ، وترسو به قدم إعرابه ، ولذلك قرأ بكثير منه من جاذب ابن مجاهد عنان القول فيه ، وما كنه عليه ، ورادّه إليه ، كأبي الحسن محمد بن أحمد بن شَنَبوذ ، وأبي بكر محمد بن مقسم[2] ، وغيرهما ممن أدى إلى رواية استقواها ، وانحى على صناعة من الإعراب رضيها واستعلاها . ولسنا نقول ذلك فسحاً بخلاف القرّاء المجتمع في أهل الأمصار على قراءاتهم، أو تسويغاً للعدول عما أَقَرّته الثقات عنهم لكن غرضنا منه أن نُرِيَ وجه قوّة ما يُسمى الآن شاذاً ، وإنه ضارب في صحة الرواية بجِرانه ، آخذ من سمت العربية مهلة غير ميدانه لئلا يرى مرىً[3] أن العدول عنه إنما هو غض منه أو تهمة له .

ومعاذ الله : وكيف هذا والرواية تنميه إلى رسول الله ﷺ ، والله تعالى

---

(١) هو أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي المعروف بابن مجاهد من أئمة القراءات وهو الذي سبّعها ، توفي سنة ٣٢٤ هـ ، انظر طبقات ابن الجزري ١/١٣٩ .

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن بن مقسم من أئمة القرّاء في بغداد ، ويذكر عنه أنه كان يقول إن كل قراءة وافقت المصحف ووجهها في العربية فالقراءة بها جائزة ، وكانت وفاته سنة ٣٥٤ هـ ، انظر طبقات ابن الجزري ٢/١٢٣ .

(٣) لئلا يرى مرى : لئلا يظن ظان .

يقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ ﴾[1] وهذا حكم عام في المعاني والألفاظ ، وأخذه هو الأخذ به ، فكيف يسوغ مع ذلك أن نرفضه ونجتنبه ، فإن قصر شيء منه عن بلوغه إلى رسول الله ﷺ فلن يقصر عن وجه من الإعراب داعٍ إلى الفسحة والإسهاب ، إلا أننا لم نقرأ في التلاوة به مخافة الانتشار فيه ونتابع من يتبع في القراءة كل جائز روايةً ودراية ، فإننا نعتقد قوة هذا المُسَمَّى شاذاً ، وأنه مما أمر الله تعالى بتقبُّله وأراد منا العمل بموجبه ، وأنه حبيب إليه ، ويرضى من القول لديه . نعم وأكثر ما فيه أن يكون غيره من المجتمع عندهم عليه أقوى منه إعراباً وأنهض قياساً ، إذ هما جميعاً مرويان مسندان إلى السلف (رضي الله عنهم) فإن كان هذا قادحاً فيه ، ومانعاً من الأخذ به فليكونُنَّ ما ضعف إعرابه مما قرأ بعض ا لسبعة به هذه حاله ونحن نعلم مع ذلك ضعف قراءة ابن كثير[2] « ضئاء »[3] بهمزتين مكتنفتي الألف ، وقراءة ابن عامر[4] : « وَكَذلِكَ زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المُشركينَ قَتْلُ أولادَهم شركائهم » وسنذكر هذا ونحوه في مواضعه متصلاً بغيره ، وهو مع ذلك مأخوذ به[5] .

ويتبيّن مما ذكره أبو الفتح في فاتحة « المحتسب » أن ما يُدعى من القراءات شاذاً هو وجه قوي من القراءة ، وهو جدير الوقوف عنده والأخذ به

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٧ .

(٢) هو عبد الله بن كثير من أصل فارسي كان إمام القراءة في مكة وأحد السبعة ، توفي سنة ١٢٠ هـ ، انظر طبقات ابن الجزري ١/٤٤٣ .

(٣) وردت هذه الكلمة في الآيات : ٥ من سورة يونس ، و٤٨ من سورة الانبياء ، و٧١ من سورة القصص ، وهذه القراءة هي رواية قنبل عن ابن كثير كما في إتحاف فضلاء البشر .

(٤) هو عبد الله بن عامر اليحصبي إمام أهل الشام في القراءة وأحد السبعة ، توفي سنة ٢٢٨ هـ ، انظر طبقات ابن الجزري ١/٤٢٣ .

(٥) المحتسب ١/٣٢ ـ ٣٣ .

على أنه معبّر عن طريقة في الأداء لجماعة من الناس . وأن أصحابَ هذه الشواذ من ثقات العلماء روايةً ودراية .

وابن جنّي لغوي ضليع ، وهو بسببٍ من ذلك ينظر إلى الدقائق اللغوية في القراءة ولا يتجنب الوقوف على كل وجه من وجوه هذه الألوان الشاذة لاشتمالها على حقائق لغوية تتصل بلغة الناس .

ومما يؤيد هذا الذي أذهب إليه أن عقد باباً في « الخصائص » عن « اختلاف اللغات وكلّها حجة » تكلّم فيه على اللغات والمفاضلة بينها ، ذهب إلى أن « اللغتين إذا كانتا في الاستعمال والقياس متدانيتين متراسلتين فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها ، لأنها ليست أحق بذلك من رسيلتها ، لكن غاية ما لك في ذلك أن تتخيّر إحداهما فتقويها على أُختها ، وتعتقد أن أقوى القياسين أقبل لها وأشد أنساً بها ، فأما رد إحداهما بالأخرى فلا . أولا ترى قول النبي ﷺ : « نزل القرآن بسبع لغات كلّها كاف شاف »[1] وعرض ابن جني للقياس في اللغات الضعيفة ، أو القليلة الرواية ، فذهب إلى أنه يأخذ بأوسع اللغتين روايةً وأقواهما قياساً ، واتخذ من العنعنة ، والكسكسة ، والتلتلة ، والكشكشة ، والتضجع ، ونحو ذلك أمثلة على ذلك ولكنه استدرك فقال : « وكيف تصرفت الحال ، فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطىء ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه »[2] ولعل القراءات ولا سيما ما أطلق عليها شواذ من أوضح الأمثلة التي يستدل بها على أن العربية لم تكتمل في لونها الفصيح الموروث إلا بعد زمان طويل من ظهور الإسلام ، وبعد عمل جاد من اللغويين والنحاة يدفعهم إلى ذلك حرص الحاكمين على الحفاظ على نمط عال من الفصاحة جمع

---

(١) الخصائص ٢/١٠ .

(٢) المصدر السابق ٢/١٢ .

من قبائل معيّنة ، فاستحسنت لغات تلك القبائل كما استبعدت لغات قبائل أخرى .

جاء في المزهر للسيوطي نقلاً عن كتاب « الألفاظ والحروف للفارابي » : « والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتُديَ وعنهم أخذ اللسان العربي بين قبائل العرب هم : قيس وتميم وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتُّكِلَ في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »(١) .

ثم يبيّن القبائل التي استبعدها اللغويون العرب فيقول : « وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤ ون بالعبرانية(٢) ، ولا من تغلب والنمر ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ،ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤ وا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم »(٣) .

---

(١) المزهر للسيوطي ٢١١/١ .

(٢) هذا وهم ، ولعله من خطأ السيوطي لا الفارابي ، لأن لغة نصارى الشام في العهود الإسلامية هي الآرامية السريانية .

(٣) المزهر للسيوطي ٢١٢/١ .

غير أن اللغويين لم يطرحوا اللغات التي استبعدوا الأخذ عنها بل راحوا على العكس من ذلك يسجّلون نماذج هذه اللغات وخصائصها وعيوبها ، وكتبوا فيها المصنّفات ، ومن ذلك :

١ ـ **كتاب لحن العوام** المنسوب إلى علي بن حمزة الكسائي (المتوفى ١٨٩ هـ) وهي رسالة صغيرة نشرها عبد العزيز الميمني سنة ١٣٨٧ هـ .

٢ ـ **لحن العامة** لأبي زكريا الفرّاء (المتوفى ٢٠٧ هـ) .

٣ ـ **ما يلحن فيه العامة** لأبي عبيدة معمر بن المثنى (المتوفى ٢١٠ هـ) .

٤ ـ **ما يلحن فيه العامة** للأصمعي (المتوفى ٢١٦ هـ) .

٥ ـ **ما خالفت فيه العامة لغات العرب** لأبي عبيد القاسم بن سلام (المتوفى ٢٢٣ هـ) .

٦ ـ **ما يلحن فيه العامة** لأبي نصر أحمد بن حاتم (المتوفى ٢٣١ هـ) .

٧ ـ **إصلاح المنطق** لأبن السكّيت (المتوفى ٢٤٤ هـ) وقد نشره عبد السلام محمد هارون .

٨ ـ **الفصيح** لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (المتوفى ٢٩١ هـ) وقد نشره ، ج بارث (G. Barth) في ليبزج سنة ١٨٧٦م ، ثم نشره محمد عبد المنعم خفاجي بمصر ١٩٤٩م ، وقد حظي هذا الكتاب باهتمام نفر من اللغويين الأقدمين فشرحوه واستدركوا عليه كما عرضوا لوهم ثعلب فيه .

٩ ـ **لحن العوام** لأبي بكر الزبيدي (المتوفى سنة ٣٧٩ هـ) ، حققه الدكتور رمضان عبد التواب وصدر سنة ١٩٦٤م ، كما حققه الدكتور عبد العزيز مطر بعنوان « لحن العامة » وصدر في الكويت سنة ١٩٦٨م .

١٠ ـ **تثقيف اللسان وتنقيح الجَنان** لأبي حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي (المتوفى سنة ٥٠١ هـ) وحققه الدكتور عبد العزيز مطر ونشر عام ١٩٦٦م .

١١ ـ تقويم اللسان لعبد الرحمن بن الجوزي (المتوفى ٥٩٧ هـ) وقد حققه الدكتور عبد العزيز مطر وصدر عام ١٩٦٦م ، ولا ننسى أن معجمات العربية ، وكتب التفسير، قد أشارت إلى كثير من اللغات الخاصة . والآن لا بد أن نرجع إلى نصوص العربية لنرى هذه اللغات المستبعدة عن الفصيحة المشهورة وأين وجدت ؟ ومن أولئك الذين باشروا بها في سلوكهم اللغوي ؟

من غير شك أن الشعر القديم بعيد كل البعد عن هذه الألوان اللغوية سواء في ذلك الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي ، فلا يكاد الدارس يعثر فيه على نماذج لغوية خاصة . وهذه الظاهرة تحفزنا إلى النظر في طريقة رواية الشعر وجمعه ومن قام بهذه المهمة العسيرة ، وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول : إنّ اللغويين والنحاة الأوائل في القرن الثاني الهجري وفي القرن الثالث اهتموا برواية الشعر وجمعه ، واتخذوا طرائق صارمة في نقد الشعر والعناية به . وأجمعوا على موازين دقيقة في تخيُّر الفصيح . وأكبر الظن أنهم أهملوا من هذه النصوص ما لم يتفق وما قرروه من ضوابط وقواعد . وبسببٍ من هذا خلا ديوان الشعر العربي القديم من نماذج تفصح عن اللغات التي استبعدوها لبعدها عن حيز الفصاحة الذي رسموه . . .

غير أننا نجد في مواد القراءات شيئاً من عناصر هذه اللغات المستبعدة . ولعل السبب في ذلك أن جمهرة المعنيين بالقراءات لم يسلكوا في صنف اللغويين النقاد . ومن أجل ذلك واجه النحاة اللغويون نماذج من ألوان القراءة بحيرة انتهوا منها إلى طريقتهم الخاصة فتأوَّلوا ما لم ينسجم مع القاعدة النحوية أو القاعدة اللغوية . وربما تشدد نفر من النحاة فحمل وجهاً من وجوه القراءة على الخطأ كقراءة نافع في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَائِشَ ﴾[1] ، وأكثر القرَّاء على ترك الهمز في « معايش » وجميع النحويين

(١) سورة الأعراف : الآية ١٠ .

البصريين يزعمون أن همزها خطأ[1]، وهذا يعني أنهم خطَّأوا نافعاً، ونافع أحد السبعة وقراءته عالية . ولعل النحاة لم يكثروا من الاستشهاد بالقرآن - وهم على خطأ كبير - بسببٍ من أن أصحاب القراءات لم يكونوا من المتضلعين بالعربية . ومن المفيد أن نرجع إلى ألوان من القراءات الشاذة نتخير منها ما يتصل بمادة هذه اللغات التي تجافاها اللغويون فبقيت في هذه لا يعرفها إلا الدارسون الذين يتحرُّون تاريخ هذه اللغة . وقد يعجب الدارس أيّما عجب أنه لا يرى هذه « الغرائب » اللغوية إلا في هذه القراءات وفي شذرات لغوية أخرى .

وقد يعجب الدارس أن يرى أئمة الفصاحة يباشرون ألواناً من النطق والتعبير تبدو غريبة في المتعارف الموروث . لقد جاء في شواذ سورة الفاتحة من « مختصر » ابن خالويه : « ذكر الخليل بن أحمد في « العين » أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يقرأ : وَإِيَّاكَ نستعينُ يشبع الضمة في النون وكان عربياً قلباً أي محضاً . قال ابن خالويه : وقد روي عن ورش أنه كان يقرؤها كذلك »[2] .

وأريد أن أقف على تعليق الخليل بن أحمد على قراءة علي بن أبي طالب التي أشبع فيها نون « نستعين » فأقول : كأن الخليل أراد أن يقول، إنما عُدَّ شاذاً من وجوه القراءة هو عربي فصيح جرى على لسان أفصح الناس بعد رسول الله وهو علي بن أبي طالب ، وهنا تبطل حجة المتنقصين من القراءات الشاذة والزارين عليها في قولهم : إن جل أصحاب القراءات هم من الأعاجم الذين يفتقرون إلى السليقة العربية . ومن أجل ذلك عابوا على الحسن البصري نماذج من القراءات وحملت على الخطأ كقراءته ﴿ وَمَا

---

(١) لسان العرب : مادة (عيش) .

(٢) كتاب المختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ، ص ١ .

تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطُون ﴾[1] وقراءته : صادى بدلاً من ص[2] . ومن المعروف أن الحسن البصري لم يكن عربياً أصالة مع أنه ثقف العربية وتضلع منها بحيث أن أبا عمرو بن العلاء ورؤ بة بن العجّاج قد شهدا بفصاحته وأنه يملك من التصرف بالعربية قدراً . فقد ذكر الجاحظ : « وقد زعم رؤ بة بن العجّاج وأبو عمرو بن العلاء أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج »[3] . وقرأ الحسن البصري ورؤ بة بن العجّاج : الحمد لله بكسر الحمد وتوجيه القراءة أن المجاورة سوّغت هذا . وكما أُتبعت كسرة الدال لكسرة اللام جرى اتباع آخر من نوع آخر فقد قرأ إبراهيم بن أبي عبلة ، الحمد لله بضم الدال واللام وهو شيء من غرائب هذه القراءات الشاذة وقرأ أيوب السختياني : ولا الضالين بالهمز وهو من هذه الغرائب التي تجافتها العربية الفصيحة التي ورثناها عن قدامى اللغويين والنحاة .

من شـواذ سورة البقرة من كتاب « مختصر » ابن خالويه

اجتزىء من هذه الشواذ بالقدر الذي يكشف عن ألوان وغرائب لغوية مما يتصل باللغات الخاصة ، ذلك أن ما اشتملت عليه هذه الشواذ أمور كثيرة بعضها شيء يتصل بالنحو لا ينسجم والوجوه النحوية المشهورة فلا يتوصل إليه إلا أن يتأول تأوُّلاً قريباً أو بعيداً . وبعضها صرفي يبتعد عن الأبنية المشهورة في العربية . وبعضها مسائل تتصل بـ (أصوات العربية) وفي هذه المسألة الأخيرة شيء خاص هو أن الانتقال من صوت إلى صوت يسوِّغه مخرج الصوت وحيزه ، كالتحول من الحاء إلى الهاء أو من الهمزة إلى العين أو من الذال إلى الدال . وقد يكون التحول بسبب لا يتصل بقرب المخرج ،

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١٠ .

(٢) البيان والتبيين ٤/٢ (ط. مصر ١٣١١ ـ ٣١) عن كتاب ليوهان فك (ترجمة النجار) .

(٣) البيان والتبيين ٢١٩/٢ (تحقيق عبد السلام محمد هارون) .

قال تعالى : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُونَ ﴾ [الآية ٤] بالهمزة وهي قراءة أبي حيوة النميري .

أقول : إنّ همز الفعل « يوقنون » في الآية المذكورة يشعر أن ماضيه « أقن » وليس هذا صحيحاً .

وقال تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [الآية ٧] بكسر الغين من « غشاوة » كما هي في القراءات المشهورة العالية وبالرفع .

وقد وردت منصوبة في قراءة عاصم . وهي بضم الغين مع الرفع في قراءة الحسن وهي غُشْوَةً على فعلة بضم الغين مع النصب وهي قراءة سفيان وأبي رجاء وهي غَشَاوَةً بفتح الغين مع النصب في قراءة الحسن أيضاً وهي « عَشَاوَةً » بالعين المهملة المفتوحة مع الرفع ، وهي قراءة طاووس .

وبين صوتَي الغين والعين إبدال كثير في آي القرآن ، وفي العربية مادة كبيرة من هذا الباب[1] . ووجه القول فيها أن مسوِّغ هذا الإبدال الصوتي قرب مخرجَي العين والغين وسنرى في آي القرآن أمثلة كافية من هذا النوع من الإبدال الصوتي وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الآية ١٤] بغير همز وهي قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع ، وهو معروف في أصحاب القراءات المشهورة . والذي نعرفه في علم اللغة أن الفعل « استهزأت » مهموز دائماً ولا تسهل هذه الهمزة إلا اضطراراً كأن تقع الكلمة في حشو

---

(١) ومن المفيد أن أشير إلى أن هذا حاصل بين الكلمة العربية ونظيرتها في اللغات السامية العبرانية والسريانية ، والكلمة غرب تكون في العبرانية عرب ومثله غرب (عن الباب = عرب ومن المفيد أن « غرب » عن البال في العربية يتحول إلى « عزب » بالعين المهملة والزاي ، ومن هذه الأمثلة : غراب في العربية = عورب في العبرانية ، وفي اللغة السريانية (عزب شمشا) أي غربت الشمس .

الشعر وهمزها يقدح في وزن البيت ، أو أن تكون الهمزة غير مستحسنة من الناحية الصوتية كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوَاً ﴾ [سورة الكهف : الآية ١٠٦] وقد وردت الكلمة في إحدى عشرة آية من سُوَرٍ مختلفة كلّها بتسهيل الهمزة . وهذا يعني أن التسهيل قد استحسن ، ولعله أكرم وقعاً على الأُذن من الكلمة . ومن المعلوم أن القراءة بالهمز جائزة لأنها صحيحة في العربية .

غير أن تسهيل الهمزة وإن أثر عن اللغة القرشية إلا أن اللغة الفصيحة التزمت الهمز وبه جاءت لغة التنزيل . ومن المعلوم أن العربية المحكية في الأقاليم منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا لا تلتزم الهمزة إلا إن كانت الكلمة مبدوءة بهمزة نحو : أكل وأخذ . على أن طائفة من الكلمات المهموزة الفاء تسهل فيها الهمزة في اللغات الدارجة فلا يقال إلف بل يقال وِلف ولا يقال « ألم » في قرى العراق بل يقال « وَلَم » وقال تعالى : ﴿ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ ﴾ [الآية ١٩] كما هي في القراءات المشهورة . وقرأ الحسن « من الصواقع » والصواقع جمع صاقعة على القلب والقلب في العربية ظاهرة واضحة أفرد لها اللغويون مصنفات خاصة كقولهم جذب وجبذ، ومسرح ومرسح وهو كثير جداً . غير أن الراجح هو أن الكلمة لها صورة مشهورة عرفت بها وشاعت أما الصورة المقلوبة الأخرى فهي من اللغات الخاصة والدليل على ذلك أن القلب شائع في اللهجات العربية الحديثة بالنسبة إلى الكلمات الفصيحة .

وقال تعالى : ﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [الآية ٢٠] بفتح الطاء وهو القراءة المشهورة ، إلا أن الأعمش وهو من كبار القرَّاء قرأ « يِخِطِّفُ » بكسر الياء والخاء والطاء وتشديدها . إن مجيء القراءة بهذا الشكل الغريب يزوّد الدارس ببناء من « أبنية » الأفعال لا تعرفه العربية .

ونقرأ أيضاً «يَخَطِّفُ » بفتح الياء والخاء وكسر الطاء وتشديدها وهو

بناء غريب آخر لا تعرفه العربية . وحكى الفرَّاء عن بعضهم يَخِطِّف بفتح الياء وكسر الخاء والتشديد .

ومن المناسب أن نقول إنّ الفرَّاء حكى عن « بعضهم » أي أن « بعضهم » هذا كان يقرأ في طريقته التي ألفها وباشرها . وربما كان « بعضهم » هذا أكثر من واحد . وهو وإن كان واحداً فلا بد أن يكون قد نطق بلغة بيئته ومن خالطهم من أهله وعشيرته . ثم إنّ رواية الفرَّاء لهذه القراءة ـ وهو من اللغويّين النحاة ورأس أهل الكوفة في النحو واللغة ومن المعنيين بـ « القرآن » ـ ذات قيمة تاريخية كبيرة . وهو بناء غريب بعيد عن فصيح العربية . ومن أهل المدينة من قرأ « يخْطِّف » بإسكان الخاء والتشديد في الطاء مع كسرها . وهذا بناء أغرب من الأبنية المتقدمة لما يعرض لها من صعوبة النطق . إن نسبة هذه القراءة لأهل المدينة تعني شيئاً يند عن قراءة « نافع » ومعنى ذلك أن المألوف السابق من ألوان التعبير والأداء وجد سبيله إلى قراءات القرآن .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ﴾ [الآية ٣٤] إن « الملائكةُ » مجرورة باللام وقد وردت في قراءة أبي جعفر بضم التاء ، فكان حرف الجر لا عمل له . وهو أمر غريب .

قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾ [الآية ٤٨] قُرئت « تَجْزىءُ » بفتح التاء والهمزة ذكره أبو حاتم السجستاني .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الآية ٢٩] قرأ ابن عامر « هوَّ » بتشديد الواو ، ذكر القراءة الأخفش . وتشد الواو في الضمير « هو » من لحن العامة كما هو معروف . وابن عامر أحد السبعة ومقرىء أهل الشام .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ [الآية ٣٥] قرأ يحيى بن وثاب « ولا تِقربا » بكسر التاء . وقرأ أبو السَّمال ، الشِّجرة بكسر الشين وحكى أبو

زيد أنها قرئت « هذه الشِّجرةِ » بكسر الشين والتاء . وهذه القراءة الأخيرة تذكر بالشاهد اللغوي المشهور :

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فلا جادكن الله من شيرات[1]

والبيت لأُمِّ الهيثمِ

ومن المعلوم أن هذه القراءات تتفق وما هو جار في لحن العامة .

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾ [الآية ٦٣] قرأ يحيى ابن وثاب « وادَّكِرُوا» بالدال المهملة المشددة . وفي هذه القراءة مسألة صوتية تتصل بإدغام الذال وهو الصوت الأصلي بالتاء التي حولت إلى دال مهملة لمجاورة الذال ثم أُدغمت الذال في الدال فصارت دالاً مشدّدة . ويجوز أن تقرأ سيراً مع قراءة يحيى بن وثاب المشددة « واذكر » وذلك في أن الإدغام يحصل بين الدال التي جاءت من تاء « افتعل » والذال الأصلية وهي فاء الفعل .

قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ [الآية ٥٥] وقرأ علي بن أبي طالب « وأخذتكم الصعقة » ومجيء هذه القراءة العامة ـ مسندة إلى علي بن أبي طالب وهو أعلم الناس بكتاب الله ـ ذو قيمة تاريخية مهمة . ثم إن خروج هذه القراءة العالية عما هو معروف من القراءات المشهورة يفيد فائدة كبيرة في أن ما حمل على الشواذ ذو قيمة كبيرة .

وقال تعالى : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا ﴾ [الآية ٦١] .

وفي قراءة ابن مسعود وابن عباس « وثومها » بالثاء ومن هنا نعرف أن

---

(١) كتاب المختصر في شواذ القراءات لابن خالويه ، وانظر المزهر للسيوطي ١٤٦/١ .

المسألة الصوتية حوّلت « الثوم » إلى « فوم » وذلك للقرابة الصوتية في أن من عناصر حيز الثاء والفاء هو الشفة . وإذا عرفنا هذه المسألة الصوتية أدركنا أن تفسير « الفوم » بـ « الحنطة » كما ورد في كتب المفسِّرين خطأ محض . وقد ذكر الزمخشري في« الكشّاف ج١ » قراءة ابن مسعود وأخذ بها فقال : والثوم للعدس والبصل (في الآية) أوفق .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ . . . ﴾ [الآية ٦٢] وقرأ عبد الرحمن الأعرج : « والصابيين » بالياء لا الهمز فكان الأصل هو « صبا » وليس الفعل المهموز « صبأ » وهذا من تسهيل الهمز الذي هو شائع في اللسان الدارج كما بيَّنا .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ [الآية ٧٠] .

وقرأ محمد ذو الشامة من أصحاب القراءات : « إن الباقر يَشَّابَهُ » والباقر اسم جمع كالبقر ومثله الجامل لجمع الجمل والماعز كالمعز والمعيز والضائن كالضأن والضئين وكذلك البقر والباقر والبقير . وهذه الأسماء التي دلّت على الجمع هي من أقدم مواد العربية وقد أوشك شيء منها أن يزول من العربية الفصيحة في عصرنا . ثم إن الفعل « يشّابه » بتشديد الشين هو « يتشابه » في الأصل ثم عرض له الإدغام ، وما زال هذا الفعل في بنائه المشدد معروف في عامِّيَّتنا الدارجة في العراق .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ [الآية ٦١] .

وقرأ إبراهيم النخعي : (فإن لكم ما سِألتم) بكسر السين . وكسر أول الفعل الماضي من النطق العامي في مواطن كثيرة .

وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ [الآية ١٢٦] وقرأ ابن محيصن : «ثم أَطَّرُّهُ » بإدغام الضاد في الطاء وهو إدغام غريب لا يرد إلا نادراً .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ، إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الآية ١٤٣] .

وقرأ الزهري : « لَرَوْفٌ رحيم » بغير همز وزن « رعُف » بضم العين . وقرأ أيضاً « لروْف » بإسكان الواو .

وقال تعالى : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ [الآية ١٥٠] وقرأ ورش عن نافع : «لِيَلَّا» بغير همز وهو من باب تسهيل الهمز الذي تحدّثنا عنه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ ﴾ [الآية ٢٤٨] .

وقرأ أبو السمال : «سَكِّينَةٌ» بتشديد الكاف ، ولا وجه لها في العربية الفصيحة .

من شواذ سورة النساء من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ . . . ﴾ [الآية ١٢] .

لم ينسب ابن خالويه هذه القراءة واكتفى بنسبتها إلى مجهول فقال : « عن بعضهم » . ومهما يكن من شيء فالقراءة على هذا الوجه من التشديد ما زالت حية في لغاتنا الدارجة ، فالعامة يقولون : « أخّ » بتشديد الخاء كما يقولون « أبّ » .

أورد ابن خالويه تعليقاً لابن دريد فقال : التشديد لغة . قال ابن خالويه : وأهل العربية يرونه لحناً لأن لام الفعل واو .

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ ﴾ [الآية ٣٣] . وقرأ مجاهد :

«ولكلٍ جعلنا مَوَالٍ» بالتنوين . قال ابن خالويه : وإنما يجوز مثل هذا في الشعر كقول الشاعر :

« فلو أن واشٍ باليمامة داره »

وهذا نموذج من القراءات التي لا يرضاها النحاة لابتعادها عن سنن القواعد النحوية ، وقال تعالى : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ ﴾ [الآية ١٦] قرأ بعضهم « واللَّذَأَنِّ» بالهمز وهذه القراءة وإن نسبت إلى « بعضهم » ذات قيمة لغوية .

ومثل هذه القراءة وردت في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [سورة طه : الآية ٦٣] فقد قُرئت : « هَذَأَنِ » .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾ [الآية ٤٣] .

وقُرئت « سُكْرَى» ونُسبت القراءة إلى الأعمش . وهو أمر غريب لأن الكلمة ينبغي أن تكون جمعاً وهي من أبنية جموع التكسير «فُعْلَى» وقرأ إبراهيم « سَكْرَى» والقراءة غريبة لأنها مؤنث سكران .

ومثل هذا ورد قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ﴾ [الآية ١٤٢] .

وقرأ عيسى بن عمر « كَسالى » بفتح الكاف وهي لغة تميم ، وقرأ جناح بن حبيش : « كُسلى » و « كَسلى » الأولى بضم الكاف والثانية غريبة أيضاً لأن كسلى ، بفتح الكاف مؤنث كسلان لا جمع له .

قال تعالى : ﴿ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ . . . ﴾ [الآية ١٠٢] وروى القاسم بن عبد الواحد عن ابن كثير أنه قرأ « طايفة » بالياء لا الهمز ، والعدول عن

الهمز إلى الياء في أسماء الفاعلين من الفعل الأجوف من خصائص اللهجات الدارجة .

من شواذ سورة المائدة من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . . . أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ ﴾ [الآية ١] .

قرأ أبو السمال : «بِهيمَةُ» بكسر الباء. قال ابن خالويه : إذا كانت العين حرفاً حلقياً فمن العرب من يتبع حركة الفاء حركة العين فيقول : سعير وبعير ورغيف ورحيم وأنا شيخ ضعيف .

أقول : إن كسر الفاء في « فِعيل » ظاهرة لغوية عامة في كثير من اللغات الدارجة في عصرنا فنقول : « كبير » و « نظيف » و « سمين » . ولكن لهذه الظاهرة شواذ منها أننا نقول : « رحيم » ولعل ذلك جاء من آية البسملة ونقول : عتيق كل ذلك بفتح الفاء .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [الآية ١٣] . روى الضبي أن يحيى بن يعمر قرأ « قُسية » بضم القاف . وقرأ بعضهم بكسر القاف والسين .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِباً ﴾ [الآية ٥٨] .

وقرأ بعضهم : (ولِعْباً) بكسر اللام وإسكان العين . قال ابن خالويه : مثل فَخِذ وفِخْذ وكَلِمة وكِلْمة .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمُ القِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾ [الآية ٦٠] .

الكلام في هذه الآية على : « وعبد الطاغوت » وهي فعل ومفعول به ولكن هذه العبارة القصيرة « عبد الطاغوت » تتحول في القراءات إلى صوَر عدة . قال ابن خالويه : فيها تسع عشرة قراءة . وفي هذه القراءات الكثيرة يتحول الفعل « عبد » إلى اسم على أبنية مختلفة مفرداً تارةً وجمعاً أُخرى والجمع على أبنية مختلفة ،أو أن الفعل يبقى فعلاً ولكنه يتغير بإسناد إلى ضمائر مختلفة . أما الطاغوت فهو إما مفعول به أو مجرور بالإضافة أو مرفوع على الفاعلية أو الخبر . وفي هذه القراءات أبنية غريبة يصعب تأويلها نحو « عُبْدَ الطاغوت » بضم العين وإسكان الباء وفتح الدال وهو مضاف إلى الطاغوت وهذه قراءة الحسن والوجه فيها عسير. و«عَبُدَ الطاغوتِ» بفتح العين وضم الباء وفتح الدال والطاغوت مضاف إليه وهي قراءة حمزة ولا ندري وجهها. و«عَبُدَ الطاغوتَ » وهذه كسابقتها إلا أن الطاغوت منصوب وهي قراءة يحيى بن وثاب . وإذا كان « عبد » في هذه الأخيرة فعلا والطاغوت مفعول به فالغرابة فيها أن « فُعل » بضم العين لا يأتي منه فعل إلا لازما في حين أن « عبد » متعد .

ومن المهم أن بين هذه القراءات قراءة عالية لِأَعْلَم الناس بكتاب الله وهو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقد قرأ : « عَبَدَة الطاغوت » جمع عابد مثل طالب وطلبة .

وقال تعالى:﴿وَتَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[الآية ١٦] .

وقرأ «الأعمش « وتِعلم » و« لا إعلم » بكسر التاء والهمزة في الفعلين . وهذه مسألة لغوية ذكرها اللغويون القدامى على أنها من اللغات المذمومة وهي في اصطلاحهم تلتلة بهراء [١] وما زالت هذه الظاهرة اللغوية

---

(١) أنظر لسان العرب : مادة « تلتل » وانظر : الصاحبي في فقه اللغة لأحمد بن فارس ، في موضوع « اللغات المذمومة » .

حية في عربية الأقاليم المحكية في عصرنا .

من شواذ سورة الأعراف من كتاب « مختصر » ابن خالويه

وقال تعالى : ﴿ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ﴾ [الآية ١٤٨] وقرأ أبو السمال « له جُؤار » بالجيم والهمز .

وهذه من المسائل التي قد يُظَنُّ أنها ترجع إلى تشابه الرسم بين الجيم والخاء في العربية ، إذ لا قرابة صوتية بين الصوتين في المخرج والحيز والصفة . وقد يقال ان « الجؤار » في قراءة أبي السمال يدل على الصوت فهو من المصادر التي تفيد الأصوات كالصراخ والنباح وغيرها . وقد اعتمد الجوهري على القراءة فذكر : أن الجؤار مثل الخوار ، جأر الثور والبقرة يجأر جؤاراً : صاحا ، وخار يخور خواراً بمعنى واحد . إن أكثر القراء قرؤوا « خواراً » بالخاء الفوقية .

والذي دعاني إلى هذا الايضاح والاستدراك أن « الجؤار » بالجيم هو ليس من الأصوات الخاصة بحيوان معيّن في حين أن الخوار بالخاء من الأصوات الخاصة بالحيوان المعروف . لقد انصرف « الجؤار » بالجيم عامة فقد جاء في « اللسان » : جأر يجأر جأراً جؤاراً : رفع صوته مع تضرّع واستغاثة . وفي التنزيل(إِذَاْ هُمْ يَجْأَرونَ) . وقال ثعلب: هو رفع الصوت بالدعاء . وجأر الرجل إلى الله إذا تضرّع بالدعاء . وفي الحديث : كأني أنظر إلى موسى له جؤار إلى ربه بالتلبية .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الغَضَبُ ﴾ [الآية ١٥٤] وقرأ معاوية بن قرة : « سكن الغضب » بالنون لا التاء . والصحيح أن الدلالة في المادتين قد تؤدي إلى نتيجة واحدة في المعنى العام إلا أن للسكوت خصوصية معنوية غير السكون . أقول : لعل هذه القراءة الشاذة جاءت من تشابه الرسم بين النون والتاء .

وقال تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ [الآية ١٦٥] .

وقد قرأ عاصم : « بعذاب بَيْئَسٍ » على وزن فيعل أو (بيئس) بفتح الهمزة وقرأ الزهري : « بعذاب بيس » مثل شين . وقرأ ابن كثير : « بعذاب بيس » مثل عبد . وقرأ نصر بن عاصم : (بعذاب بييس » بياءين . وهذا كله من القراءات التي ابتعدت عن البناء الفصيح المثبت في الآية الكريمة .

من شواذ سورة الأنفال من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ ﴾ [الآية ١] .

وقرأ ابن محيصن « عَلَّنْفَال » بالإدغام . وهذا الإدغام الحاصل من حرف الإضافة « عن » مع لام التعريف كثير في اللغة الخاصة ومثله « على » .

ومن قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ ﴾ [الحج : الآية ٦٥] وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ . . . فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ الآية ٥٧] .

وقرأ ابن مسعود : « فشرِّذْ » بالذال ، وهي قراءة غريبة إذ لا معنى له « شرذ » بالذال المعجمة . ولم تؤد معنى « شرد » بالدال المهملة إلا أن تكون مأخوذة من لسان هذيل[1] خاصة ولم تعرف في سائر العرب . ولكن هذه القراءة ذات قيمة تاريخية لما نعرف من مكانة ابن مسعود واهتمامه بالقراءة وسماعه عن رسول الله ﷺ .

---

(١) ذكر ابن جنّي في « المحتسب » ١ / ٢٨٠ هذه الآية في شواذ سورة الأنفال وقال : لم يمرر بنا في اللغة تركيب (ش ر ذ) وأوجه ما يصرف إليه ذلك أن تكون الذال بدلاً من الدال كما قالوا . لحم خرادل وخراذل . والمعنى الجامع لهما أنهما مجهوران ومتقاربان .

من شواذ سورة التوبة من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً ﴾ [الآية ٤] .

وقرأ عطاء بن يسار : « ثم لم ينقضوكم شيئاً » بالضاد المعجمة . وتوجيه هذه القراءة أنه قد يكون للقرابة الصوتية بين صوتَي الصاد والضاد أثر في ذلك فالصاد صوت أسناني لثوي مهموس مُفخم ، والضاد صوت أسناني لَثَوِيٌّ شديد مجهور مفخم . وهذا النوع من الإبدال الصوتي حاصل في « حصب جهنم » و « خضب جهنم » « وقبض قبضة من أثر الرسول » و « قبص قبصة من أثر الرسول » وفي آيات أخرى[1] .

وقال تعالى : ﴿ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ﴾ [الآية ٣٥] .

وقرأ أبو عمرو في رواية : « جباهم » بإدغام الهاء في الهاء . وهي قراءة غريبة وذلك أن الكلمة يعرض لها ما دعوه بـ (التقاء الساكنين) نتيجة إدغام الهاء بالهاء وهذا يؤلف صعوبة تجنَّبتها العربية الفصيحة في كثير من الكلمات ولم يبقَ من ذلك إلا قليل من الألفاظ مما لا يمكن أن يتخلص فيها من هذا الثقل الذي يعرض لها بسبب التقاءِ الساكنين نحو حمارَّة القيظ وصبارَّة القر وإحمار وإخضار وتتبعان وتضام وغيره . ومن المفيد أن هذا كثير في اللهجات الدارجة .

من شواذ سورة يونس من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ [الآية ٢٤] .

---

(١) ومن الغريب أن هذا النوع من الإبدال الصوتي يحصل بين العربية والعبرانية نحو (ضحك) في العربية (صاحق) في العبرانية .

وقرأ أبو عثمان النهدي : « وازْيَأَنَّتْ » وهو من الغرائب لبُعد الأصل « زين » عن « زان » التي لا وجود لها في العربية إلا في هذه القراءة .

من شواذ سورة يوسف من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ﴾[الآية ٧٢] .

وقرأ أبو هريرة وجماعة : « صَاعَ الملكِ » والقراءة مقبولة مفهومة . وقرأ يحيى بن يعمر : « صَوغ الملك » بالغين المعجمة وفتح الصاد . وقرأ عبدالله بن عون : « صُوغ » بضم الصاد والغين المعجمة . وقرأ سعيد بن جبير : «صُواغ » بضم الصاد والغين المعجمة . وقد تكلمنا على الإبدال الصوتي بين العين المهملة والغين المعجمة في « غشاوة » و« عشاوة » من سورة البقرة .

وقال تعالى : ﴿ فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ ﴾ [الآية ٨٧] .

وقرأ النخعي : « ولا تجسسوا » بالجيم وليس من قرابة صوتية بين الحاء والجيم ، نعم إن هناك قرابة في الدلالة المعنوية مع خلاف يسير . ثم ألا يكون لتشابه الرسم شيء أوجب هذه القراءة في حالة التخفف من قيد الإعجام .

ولهذه القراءة نظائر في سورة الحجرات الآية ١٢ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ فقرئت : « ولا تحَسَّسُوا » وفي سورة الإسراء الآية ٥ في قوله تعالى : ﴿ فَجَاسُوْا خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ فقُرئت « فحاسوا » بالحاء المهملة . وقال تعالى : ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [الآية ١٨] .

وقرأ الحسن وابن عباس :(بِدَمٍ كَدِبٍ) بالدال المهملة . والكدب لا تعني الكذب وإن حصل إبدال بين الذال والدال في كلمات أخرى .

وأغلب الظن أن هذا الإبدال شائع في اللغات الخاصة وما زال معروفاً في لغاتنا الحديثة الدارجة .

من شواذ سورة الكهف من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارَاً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ [الآية ٧٧] .

وقرأ ابن مسعود : « أن ينقاضَّ » وهي قراءة جيّدة مقبولة وإن شذّت عن المصحف . وقرأ الزهري ويحيى بن يعمر : « أن ينفاضَّ » بالفاء الموحدة لا القاف مع التشديد[1] . ومع توفر شيء من معنى قريب إلا أن الإبدال الصوتي غير متوفر القرابة الصوتية . ثم ألا يكون هذا شيئاً من تشابه « الرسم بين الفاء والقاف إذ يصعب التمييز بين النقطة الواحدة والنقطتين : والذي يقوي هذا الظن أن يحيى بن يعمر من أصحاب اللغة والنحو ولا يمكن أن تخفى عليه قوة (انقض) بالقاف وأنها شيء أقوى من (انفض) بالفاء .

من شواذ سورة مريم من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَدَاً ﴾ [الآية ٢٦] .

وقرأ ابن الرومي « تَرَئِنَّ » بالهمز عن أبي عمرو . وروي عنه شيء من هذا في سورة التكاثر الآية ٦ : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ﴾ فقرأ « لترؤ ن » بالهمز وهو عند أكثر النحويين لحن .

من شواذ سورة طه من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ [الآية ١٨] .

---

(١) في المحتسب لابن جنيّ ٢/ ٣١ : وقرأ علي بن أبي طالب وعكرمة وأبو شيخ الهنائي ويحيى بن يعمر « ينقاص » بالصاد المهملة قال أبو الفتح و(ينقاص) مطاوع قصته فانقاص أي كسرته فانكسر .

وقرأ عكرمة : « وأَهُسُّ » بالسين المهملة وهذا ضرب من الإبدال الصوتي بين الشين والسين للقرابة الصوتية في صفة كل منهما فكلاهما رخو مهموس[1] .

من شواذ سورة الحج من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ ﴾ [الآية ٤٠] .

قال ابن خالويه فيها إحدى عشر قراءة : هي : صَلَوَات ، وصُلُوات وقرأها أبو العالية والكلبي والضحّاك ، وصُلْوات وقرأها جعفر بن محمد ، وصُلُوت وقرأها الجحدري ، وصُلُوب بالباء وقرأها الحجاج والجحدري ، وصَلْوات بإسكان اللام وقرأها أبو العالية أيضاً ، وصِلْوات وقرأها الجحدري ، وصُلْواث بالثاء وقرأها الجحدري أيضاً ، وصُلُوثاً وقرأها مجاهد ، وصُلَوَات وقرأها الكلبي ، وصِلْوِيثاً وقرأها عكرمة ، وزاد ابن مجاهد صِلْواثِ بكسر الصاد وبالثاء .

أقول : إن هذه الكلمة من المشترك السامي فهي في العبرانية والآرامية وفي غيرها من اللغات السامية . أما الاختلاف في ضبطها بالحركات القصيرة والطويلة فهو شيء يرجع إلى اختلاف اللغات . وإن الاختلاف في روايتها بالثاء أو التاء فذلك شيء يتصل بالأصل السامي ، وما يحدث بين التاء والثاء فيها من إبدال ، إلا أن الغريب الذي لا أفهمه هو مجيئها في قراءتها بالباء . وما أظنها إلا من باب السهو والخطأ إذ لا وجود لهذا الأصل في الصوَر السامية للكلمة .

ومثل هذا ما ورد في سورة « المؤمنون » في الآية ٣٦ وهي نقطة

---

(١) ومن المفيد أن أعرض لحقيقة أن كثيراً من الكلمات التي وردت بالسين في العربية يقابلها الشين في العبرانية نحو : شمس في العربية ، شمش في العبرانية وهو كثير .

« هيهات » فقد وردت في قراءات كثيرة تختلف في ضبط الكلمة وفي الإبدال بين الهاء الأولى والهمزة فقرئت « أيهات » و « أيهى » إلى قراءات أخرى لا تخرج عن حدود اختلاف الضبط غير أن قراءة واحدة هي « إيهان » بالنون لا سبيل إلى فهمها إلا على أساس السهو أو لعله من تشابه الرسم .

من شواذ سورة القصص من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحبُّ الفَرِحِينَ ﴾ [الآية ٧٦] .

وحكى عيسى بن سليمان الجحدري أنه سمع قراءة « الفارحين » والغرابة في هذه القراءة أنه لم يسمع بناء « فاعل » من الفعل « فرح » ولعلّ هذا كان معروفاً في لغة من لغات العرب .

من شواذ سورة يس من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الآية ٦٠] .

وقرأ يحيى بن وثاب « ألم إِعْهَدْ » بكسر الهمزة وبنو تميم يقرؤون « ألم أحد » وهذا الإبدال مع الإدغام يؤلف ظاهرة صوتية فريدة . ومثل هذه الظاهرة يحصل في الألسن الدارجة في عصرنا .

من شواذ سورة الواقعة من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾ [الآية ٢٩] .

وقرأ علي بن أبي طالب : « وطلع منضود » بالعين . ودلالة الطلع غير الطلح . فالطلع هو طلع النخل والطلح ضرب من الشجر . ولكن نسبة القراءة إلى علي بن أبي طالب تكسبها علواً ومكانةً .

من شواذ سورة الحديد من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ ﴾ [الآية ٢٩] .

وقرأ الحسن : (لِيَلاَّ) بالياء بالتسهيل وتسهيل الهمز يجري على سنن اللغات الدارجة .

من شواذ سورة المُزَّمِّل من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحَاً طَوِيلاً ﴾ [الآية ٧] .

وقرأ يحيى بن يعمر : (سَبْخاً) بالخاء المعجمة . وهذا الإبدال الصوتي تسوغه القرابة الصوتية في الحيِّز والمخرج . إلا أن فرقاً كبيراً في الدلالة بين القراءتين . فالسبخ يعني النوم ، والسبح يعني الفراغ والتصرف والاضطراب والجيئة والذهاب .

من شواذ سورة سبأ من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيلِ وَالنَّهارِ ﴾ [الآية ٣٣] .

وقرأ سعيد بن جبير وجعفر بن محمد « بل مَكَرُّ الليلِ » بتشديد الراء[1] وهي قراءة غريبة .

من شواذ سورة النبأ من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجَاً ﴾ [الآية ١٤] .

---

(١) وزاد ابن جنيٍّ في المحتسب ١٩٣/٢ ، وهي قراءة أبي رزين أيضاً وهو مسعود بن مالك روى عن أبي مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما . أنظر طبقات ابن الجزري ٢٩٦/٢ .

وقرأ عكرمة : « ماء نجَّاخاً » بالنون والخاء . قد يكون « نجاخاً » مفيداً أيضاً لدلالته على الحركة والصوت ، وهو من غير شك غير « شجاجاً » أقول : لعل هذه القراءة تهيأت بسببٍ من تقارب الرسم .

من شواذ سورة الواقعة من كتاب « مختصر » ابن خالويه

قال تعالى : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الآية ٦٥] .

وقرأ أبو حرام العكلي : « فظلتم تَفَكَّنُونَ » بالنون . و « تفكن » بمعنى تندم في حين ان « تفكه » بمعنى تعجب كما ذكر ابن خالويه وفي اللسان: وقال مجاهد في الآية : « تفكنون » بمعنى تعجبون وقال عكرمة : إنها بمعنى تندمون .

وبعد فهذه جملة مسائل تتصل بالقراءات الشاذة تخيّرتها من كتاب « مختصر » ابن خالويه لبيان أن هذه المسائل تبتعد قليلاً أو كثيراً عن لغة التنزيل في المصحف الذي وصل إلينا وفق القراءات الموحدة المشهورة العالية ولا بد أن أكمل هذه المختارات فأعرض لما في كتاب « المحتسب » لابن جنّي فأتخير منه ما لم أجده في كتاب ابن خالويه للغرض نفسه .

من شواذ سورة البقرة من كتاب « المحتسب »

قال تعالى : ﴿ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [الآية ١٠٢] .

وقرأ الحسن وقتادة : « بين المَرِ وزوجه » بفتح الميم وكسر الراء خفيفة من غير همز وقرأ الزهري : « المرّ » بفتح الميم وتشديد الراء . وقرأ ابن أبي إسحاق « المرء » بضم الميم وسكون الراءِ والهمز. وقرأ الأشهب : « المِرء » بكسر الميم والهمز . وتناول ابن جنّي هذه القراءات ليعلل شذوذها وابتعادها عن فصيح العربية المشهورة فقال : أما قراءة الحسن وقتادة : « بين

المَر » بفتح الميم وخفة الراء من غير همز فواضح الطريق ، وذلك أنه على التخفيف القياسي ، كقول في الخبءِ: هذا الخَبُ . . . تحذف الهمزة وتلقى حركاتها على الباء قبلها . وعليه القراءة : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ ﴾[1] .

وبهذه الطريقة المتكلّفة خَرَّجَ ابن جنّي هذه القراءة وقد خرَّج أيضاً بتكلّف عبر قراءة الزهري المتقدمة . أما قراءة المُرء « بضم الميم » و « المِرء » بكسر الميم فذهب إلى أنهما « لغة »[2] .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ [الآية ٦١] .

وقرأ يحيى بن يعمر وإبراهيم « ما سِأَلْتُمْ » بكسر السين ويحاول ابن جنّي أن يجد لها تعليلاً فلم يفلح فقال : فيه نظر ، وذلك أن هذه الكسرة إنما تكون في أول ما عينه معتلة كبعت وخفت ، أو أول فعل إذا كانت عينه معتلة أيضاً كقيل وبيع وحل وبل أي حل وبل . . .

أقول : وكلام ابن جنّي لا يعرض للمشكلة من أي وجه فأمثلته لا تنطبق على القراءة في « سِألتم » بكسر السين .

ولذلك قال بعد أن استنفد كل فعل يكسر أوله : « فإذا كان كذلك فقراءتهما « سِألتم» مكسورة السين مهموزة غريب »[3] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ ﴾ [الآية ١٢٦] .

وقرأ ابن محيصن ثم « أَطُرُّهُ » . وعلق ابن جنّي فقال : « هذه لغة

---

(١) سورة النمل : الآية ٢٥ .
(٢) المحتسب ١٠١/١ - ١٠٢ .
(٣) المحتسب ٨٨/١ .

مرذولة ، أعني : إدغام الضاد في الطاء وذلك لأن فيها من الامتداد والفشو ، فإنها من الحروف الخمسة التي يدغم فيها ما يجاورها ، ولا تدغم هي فيما يجاورها . وهي الشين والضاد والراء والفاء والميم . . . وقد أخرج بعضهم الضاد من ذلك[1] ، وقال : لأنه قد حكي إدغام في الطاء في قولهم في « اضطجع » و « اطجع » وأنشدوا :

لَمَّا رأى أَنْ لا دَعَـهْ ولا شَبَعْ مالَ إلى أَرطـاةِ حقْفٍ فاَطَجـعْ

ويروى : « فاضطجع » على الأصل وهو الأكثر والأقيس .

أقول : أن يكون الشاهد قد صنع فيه « فاطجع » وضعاً وكذباً لأنه روي أيضاً على الوجه الصحيح ؟ ومما يقوي هذا عندي أن هذا الإدغام غير معروف ولا مسموع وغير جار على طريقة العربية في اجتماع الأصوات .

قال تعالى : ﴿ أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا ﴾[2] .

وقرأ عاصم : « أن يَصَّلِحَا » بتشديد الصاد . وعلق أبو الفتح فقال أراد « يصطلحا » أي يفتعلا ، فآثر الإدغام فأبدل الطاء صاداً ثم أدغم فيها الصاد التي هي فاء فصارت يصَّلحا . ولم يجز أن تبدل الصاد طاء لما فيها من امتداد الصفير ، أن ترى أن كل واحد من الطاء وأُختَيها والظاء وأُختَيها يدغمن في الصاد وأُختَيها ولا يدغم واحدة منهن في واحدة منهن فلذلك لم يجز (إلا أن يطَّلحا) وجاز يصَّلحا[3] .

من شواذ سورة الأعراف من كتاب « المحتسب »

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرَاً ﴾ [الآية ٥٧] .

---

(١) المحتسب ١٠٦/١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٢٨ .

(٣) المحتسب : ٢٠١/١ .

وقرأ الحسن وقتادة وأبو رجاء والجحدري وسهل بن شعيب : «نُشْراً» بضم النون وجزم الشين . وتوجد قراءات عدة كلّها بالياء مع خلاف في الضبط . كما قرأ مسروق « نَشَرَاً » وعلق ابن جنّي معللاً كل قراءة فقال في « نُشراً » إنها تخفيف « نُشُر » بضمتين وهي قراءة « العامة » . والنشر جمع نشور لأنها تنشر السحاب وتستدره ، والتثقيل أفصح لأنه لغة الحجازيين ، والتخفيف في نحو ذلك لتميم(١) وهذه إشارة واضحة إلى اللغات التي اعتمدت عليها القراءات ثم إن قوله قراءة « العامة » يشير إلى أن للعامة نمطاً يبتعد كثيراً أو قليلاً عن القراءات الفصيحة المشهورة ، ثم ألا يجوز أن تكون هذه القراءات قد تولدت من تشابه الرسم .

من شواذ سورة التوبة من كتاب « المحتسب »

قال تعالى : ﴿ لَوَلَّوا إِلَيهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [الآية ٥٧] .

وقد روى الأعمش قال : « سمعت أنَسا(٢) يقرأ «لَوَلَّوا إِلَيهِ وَهُمْ يَجْمِزُونَ » قيل له : وما يجمزون ؟ إنما هي يجمحون فقال : يجمحون ويجمزون ويشتدون واحد . قال أبو الفتح : ظاهر هذا أن السلف كانوا يقرؤون الحرف مكان نظير من غير أن تتقدم القراءة بذلك ، لكنه لموافقته صاحبه في المعنى . وهذا موضع يجد الطاعن به إذا كان هكذا على القراءة مطعناً ، فيقول : ليست هذه الحروف كلّها عن النبي ﷺ ، ولو كانت عنه لما ساء إبدال لفظ مكان لفظ إذ لم يثبت التخيير في ذلك عنه ، ولما أنكر أيضاً عليه : « يجمزون » إلاّ أن حسن الظن بأنَس يدعو إلى تقدّم القراءة بهذه الأحرف الثلاثة التي هي « يجمحون » و « يجمزون » و « يشتدون » ،

---

(١) المحتسب : ٢٥٥/١ .

(٢) هو أنس بن مالك الأنصاري صاحب رسول الله وخادمه ، روى عنه سماعاً ، توفي سنة ٩١ هـ ، انظر طبقات ابن الجزري ١٧٢/١ .

فيقول : اقرأ بأيها شئت ، فجميعها قراءة مسموعة الأحرف مقروء بجميعها لكان النقل بذلك وصل إلينا ، قيل أو لا يكفيك أنَس موصلاً لها إلينا ؟ فإن قيل : أن أنَساً لم يحكها قراءة وإنما جمع بينها في المعنى ، واعتل جواز القراءة بذلك لا بأنه رواها قراءة متقدمة . قد سبق من ذكر حسن الظن ما هو جواب عن هذا » .

من شواذ سورة سبأ من كتاب « المحتسب »

قال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ [الآية ٢٣] .

وقرأ الحسن وقتادة وأبو المتوكل « فَزَّغَ » بفتح الفاء والراء مع تشديدها وبالغين ، وقرأ الحسن وقتادة أيضاً : « فُرِغَ » بالراء خفيفة . وقد روي عن الحسن : « فُزِّغَ » بضم الفاء وبالراء مشدّدة وبالغين .

وقال أبو عمر الدوري : بلغني عن عيسى بن عمر أنه كان يقرأ : حتى إذا أَفْرُنْقِعَ عن قلوبهم قال أبو الفتح : المعنى في جميع ذلك حتى إذا كشف عن قلوبهم . ثم التمس وجهاً وتعليلاً لكل قراءة .

وقال أبو حاتم : قال يعقوب روى أيوب السختياني عن الحسن : «فُرِغَ » بضم الفاء وكسر الراء وخفيفها ، وأعجم الغين فقيل للحسن : انهم يقولون : «فرغ » مثقلة ، فقال الحسن : لا ، إنها عربية . قال : ولا أظن الثقات رووها عن الحسن على وجوه إلا لصعوبة المعنى عليه . واختلفت ألفاظه ، وقال فيها أقوالاً مختلفة ، يعني أبو حاتم اجتماع معنى (ف ز غ) مع معنى (ف ر غ) في أن الفزع : قلق ومفارقة للموضع المقلوق عليه . والفراغ : إخلاء الموضع ، فهما من حيث ترى ملتقيان . وكذلك معنى « افرنقع » يقال : افرنقع القوم عن الشيء أي تفرّقوا عنه[1] .

---

(١) المحتسب ١/٢٩٦ .

لقد بدا لنا من هذا الاستقراء لنماذج من القراءات الشاذة أنها مواد لغوية ابتعدت قليلاً أو كثيراً عن السنن المشهورة في القراءات العالية . وهذا يعني أنه في الوقت الذي سادت عربية فصيحة ذات نمط في أبنيتها ونحوها كانت هناك أنماط أُخرى لغوية تشذ عن هذا الخط المستقيم . ومما تجدر الإشارة إليه أني لم أذكر النماذج التي خالفت فيها القراءات الشاذة قواعد النحو العربي معتمداً أن الدارسين للنحو كانوا قد مرّوا بنماذج منها في كتب النحو . وقد حاول النحاة التماس وجهٍ لتجويزها وتقريبها من مشهور الأُسس النحوية . على أن من النحاة من لم يستطع التماس هذا الوجه فحمل القراءة على اللحن وربما حصل لهم هذا في شيء من القراءات العالية .

وهذا يعني أن مادة ما ندعوه في عصرنا بـ « اللهجات » كانت واضحة في القراءات الشاذة كل الوضوح في الوقت الذي استطاعت فيه جهود اللغويين يعضدهم الحاكمون إلى أن تكون لغة فصيحة أخذت طريقها إلى مجتمع آخذ بالنماء والاتساع . وكأن جمهرة القراء لم يأبهوا لأقوال اللغويين النحاة ونقدهم وكان بين هؤلاء القراء جماعة من أصحاب النحو واللغة . وتسمية هذه القراءات بالشواذ حمل الضيم عليها ، فهي ليست دائماً لغة الناس والطبقات العامة ، فقد يكون بين الذين رويت هذه القراءات عنهم أعلم الناس بكتاب الله وأقرؤهم له وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وبينهم عبد الله بن مسعود وهو أحد كتّاب الوحي وبينهم أنَس بن مالك صاحب رسول الله وخادمه ، وعيسى بن عمر ويحيى بن يعمر من كبار النحويين .

ومما يقوي هذه القراءات رأيُ كبار اللغويين فيها ومنهم ابن جنّي في مقدمة « المحتسب »[1] وقد أشرنا إلى ذلك . وقد أشار ابن جنّي ليقوي هذه

---

(١) المحتسب : ١٩٢/٢ ـ ١٩٣ .

النماذج من القراءات إلى أنها تتصل بلغات القبائل والأقاليم فَمِمَّا نسبه ابن جنِّي من ذلك :

آ ـ تسكين الهاء عند الوصل :

جاء في المحتسب »[1]«ومنهم من يدع الهاء على سكونها في الوصل كما يسكنها عند الوقف كما أن منهم من يسكن الهاء المضمرة إذا وصلها فيقول : مررت به أمس ، وذكر أبو الحسن أنها لغة لأزدِ السَّراة » . ذكر ابن جنِّي هذا في التعليق على الآية ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾[2] في قراءة من يقرأ « هذه هي سبيلي » بالياء اللاحقة بعد الهاء .

ب ـ ومن لغة تميم المسائل الآتية :

١ ـ تخفيف ثقل الحركات المتتابعة بعد التسكين : جاء في « المحتسب »[3] .

ومن ذلك قال ابن مجاهد : قال عباس : سألت أبا عمرو عن ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ ﴾ ، فقال أهل الحجاز يقولون « لاَ يُعَلِّمُهُمْ وَيُلْعَنُهُمْ »[4] مثقلة ، ولغة تميم يَعَلِمُهُم ويَلْعَنْهُم .

قال أبو الفتح : فأما التثقيل فلا سؤال عنه ولا فيه ، لأنه استيفاء واجب الإعراب ، لكن من حذف فعنه السؤال وعلّته توالي الحركات مع الضمَّات ، فيثقل ذلك عليهم فيخففون بإسكان حركة الإعراب . وعليه قراءة أبي عمرو .

---

(١) المحتسب ١/٢٤٤ .

(٢) سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

(٣) المحتسب ١/١٠٩ .

(٤) سورة البقرة : الآية ١٢٩ ، ١٥٩ .

٢ ـ إدغام المضارع المجزوم المضعَّف اللام :

جاء في « المحتسب »[١] ومن ذلك قراءة عمرو بن عبيد وأبي جعفر يزيد ابن القعقاع ﴿ وَلَا يُضَارَّ ﴾[٢] بتشديد الراء وتسكينها . قال أبو الفتح : أما تشديد الراء فلا سؤال فيه ، لأنه يريد «يضار» بفتح الراء الأولى أو بكسرها . وكلاهما قد قرىء به ، أعني الفتح في الراء الأولى والكسر ، والإدغام لغة تميم . والإظهار لغة الحجازيين على ما مضى ، لكن تسكين الراء مع التشديد فيه نظر .

٣ ـ تسكين ثاني الثلاثي إذا كان مضموماً أو مكسوراً . جاء في المحتسب[٣] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً ﴾[٤] « قُرئت نُشْراً » بضم النون وجزم . قال أبو الفتح : أما نُشْراً فتخفيف « نُشُراً » في قراءة العامة والنشر جمع نشور لأنها تنشر السحاب وتستدره ، والتثقيل أفصح لأنه لغة الحجازيين ، والتخفيف في نحو ذلك لتميم وهذه جارية في نظائر هذه الآية فالحبْك بإسكان الباء لغة تميم وبالضم لغة الحجاز في قوله تعالى ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [سورة الذاريات : الآية ٧] .

٤ ـ كسر شين عشِرة : جاء في المحتسب[٥] .

ومن ذلك قراءة الأعمش وطلحة بن سليمان : ﴿ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا

---

(١) المحتسب ١/١٤٨ .
(٢) سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .
(٣) المحتسب ١/٢٥٥ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٧ .
(٥) المحتسب ١/٢٦١ .

عَشِرَةَ عَيْناً ﴾[1] بكسر الشين من عشرة قال أبو الفتح : إنّ «عَشِرَةَ» بكسر الشين فَتميميّة وأما إسكانها فحجازية .

٥ ـ كسر أول المضارع إذا كان ثاني ماضيه مكسوراً : جاء في المحتسب[2] .

ومن ذلك قراءة يحيى والأعمش وطلحة ورواه إسحاق الأزرق عن حمزة ﴿ فَتِمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[3] بكسر التاء .

قال أبو الفتح : هذه لغة تميم أن تكسر أول مضارع إذا كان ثاني ماضيه مكسوراً نحو علمت تعلم وأنا إِعلم ونحن نِركب وتقل الكسرة في الياء نحو يعلم ويِركب استثقالاً للكسرة في الياء ، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة نحو تِنطلق ، ويوم تِسْوَدُّ وجوه فكذلك تِمَسَّكم النار .

٦ ـ جمع صُنو على صُنوان (بالضم) جاء في المحتسب[4] .

والصُنوان بالضم لتميم وقيس ، وبالكسر لأهل الحجاز .

٧ ـ تسمية القبر بالجَدَف في لغة تميم[5] وبالجَدَث في لغة الحجاز ومن اللغات الخاصة :

كسر شين « شِجرة » .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٦٠ .
(٢) المحتسب ١/ ٣٣٠ .
(٣) سورة هود : الآية ١١٣ .
(٤) المحتسب ١/٣٥١ .
(٥) المصدر السابق : ٢/٦٦ .

جاء في المحتسب[1] قال عباس : سألت أبا عمرو عن « الشِّجَرة » بكسر الشين فكرهها وقال : يقرأ بها برابر مكة وسودانها ، ومن هذه اللغات :

كسر همز إيان « كما جاء في المحتسب »[2] : وقد قرأ السلمي : ﴿إِيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[3] بكسر الهمزة والسلمي يشير إلى بني سليم ومنها : ضم أول الأجوف حين بنائه للمجهول وقلب عينه واواً نحو قُول وبوع وهي لغة لبني ضبَّة[4] .

ومنها: تحريك الحلقي الساكن بعد فتح : جاء في المحتسب[5] .

ومن ذلك قراءة سحيل بن شعيب النهمي : « جهرة »[6] و « زهبرة »[7] .

قال أبو الفتح مذهب أصحابنا في كل شيء من هذا النحو مما فيه حرف حلقي ساكن بعد حرف مفتوح : أنه لا يحرّك إلا على أنه لغة فيه مد . . . ومذهب الكوفيين فيه أنه يحرّك الثاني لكونه حرفاً حلقياً فيجيزون فيه الفتح وإن لم يسمعوه ، كالبحْر والبحَر والصحْر والصحَر . وما أرى القول من بعد إلا معهم ، والحق فيه إلا أني أؤَيدهم . وذلك أنني سمعت عامة عقيل تقول ذلك ولا تقف فيه سائغاً غير مستكره ، حتى لسمعت الشجري يقول:أنا محموم بفتح الحاء وليس أحد يدَّعي أن في الكلام مفعول بفتح الفاء

---

(١) المحتسب ١/٧٢ .
(٢) المحتسب ١/٢٦٨ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٨٧ .
(٤) المحتسب ١/٣٤٥ - ٣٤٦ .
(٥) المحتسب ١/٨٣ .
(٦) سورة البقرة : الآية ٥٥ .
(٧) سورة طه : الآية ١٣١ .

ومنها : أن الكوفيين أجازوا « ترئن » بالهمز وهي قراءة أبي عمرو وأنشدوا :

« كَمُشْتَرِيءٍ بالحَمْدِ أَحمِرةً بُتْراً »[1] .

ومنها قلب ألف المقصور ياء حين يضاف إلى ياء المتكلم . كقراءة النبي ﷺ وأبي الطفيل وعبد الله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر الثقفي : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَيَّ ﴾ .

قال أبو الفتح : هذه لغة فاشية في هذيل وغيرهم[2] .

بعد هذا العرض لحال العربية في لهجاتها من خلال كتب اللهجات والقراءات وما أثر عن المتقدمين من كبار الصحابة واللغويين مِمَّن عنوا بالقرآن . يبدو لي أن العربية توحدت في نمط فصيح في أبنيته ومعانيه وأصواته ونحوه وصرفه بسبب الجهود التي توجهت إلى جمع القرآن وتوحيد قراءاته وتهيئة المصحف المشهور . ولولا ذلك لكانت لغات عدة تختلف في كل شيء من عناصرها المختلفة ورب سائل يسأل : لِمَ كانت النصوص الشعرية جارية على النمط الفصيح المشهور وَلِمَ لم يعرض لها ما وجد في القراءات ؟

والجواب عن هذا أن رواة الشعر ونقّاده وجلّهم من ثقات اللغويين رسموا لهم منهجاً صارماً في أخذ النصوص الفصيحة على النمط الذي يؤيد آراءهم في اللغة والنحو . وهذا يعني أنهم نبذوا أشياء كثيرة لا تخدم هذا المنحى الصارم .

---

(١) المحتسب ٢/ ٤٠ .

(٢) المحتسب ١/ ٧٦ .

الفصل الثاني

مِنْ نَحْوِ القُرْآن

قبل أنْ أدخلَ في هذا الموضوع ، أود أن أشير إلى أن ما يتصل بعلم « النحو » هو موضوع لغوي ، وأن « نحو » العربية شيء منها يتصل بمعناها ومبناها . أما الفصل بين هذا وذاك فليس إلا لغرض التسهيل على الدارسين كي يستقبلوا في درسهم موادَّ منفصلٍ بعضها عن بعض وفاءً بما يتطلب العلم التربوي .

إن أغلب الموضوعات النحوية شيء يتصل بالكلمة وبنائها ، وتأليفها مع الكلمة الأخرى تعبيراً لغوياً هو « الجملة » كما تبرز في موضوعات النحو . وهل الجملة وبناؤها من أفراد هي الكلمات غريبة في الحيّز اللغوي ؟ وإذا كان اللغوي لا يعنى بهذا فبأي شيء هو معنيٌّ إذاً ؟

وعلى هذا سيكون البحث في « نحو القرآن » في عملي هذا مادة لغوية تتصل ببناء هذا الأدب الرفيع الذي هو آيُ الذكر الحكيم .

سأعرض في هذا الأمر لمسائلَ تتصل بأدوات أو قل بحروف عُدَّتْ زائدةً تارةً ومؤوَّلة بغيرها تارةً أخرى .

ومن هذه المواد : زيادة الباء في خبر « ليس » و « ما » .

إن هذا الموضوع من مادة النحو نراه في مبحث « ليس » و « ما » في

كتب النحو المطوّلة منها والمدرسية . ولن أقول فيه ما قال النحاة في قديم الزمان وما يقال في عصرنا في كتب النحو المدرسية ولا أقول « النحو الجديد » لأني لا أتصور أن النحويّ الجديد يردد الكلام نفسه إذا ما أخذ نفسه بالنظر الجديد من الناحية اللغوية .

قال الأقدمون ، ومثلهم المعاصرون : إنّ « الباء » وهي حرف جر تزداد في خبر « ليس » و « ما » النافيتين . وزادوا على ذلك في الكتب النحوية القديمة قولهم : وتزاد في خبر « يكون » المنفية المجزومة بـ « لم » نحو قول الشنفرى :

إذا مُدَّتِ الأيدي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ   بأَعجَلِهم إِذْ أَجْشَعُ القـومِ أَعجَلُ

وقد وقع المفسّرون في حرج ـ وهم يعرضون للاستعمالات القرآنية ـ أن يتابعوا النحاة فيقولوا بزيادة « الباء » في خبر « ليس » و « ما » كما في قوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [سورة الحج : الآية ١٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [سورة فُصّلت : الآية ٤٦] .

قلت وجد المفسّرون أنفسهم في حرَج أن يقولوا كما قال النحويون إن « الباء » زائدة ، ولا يتجه أن يُقالَ أنَّ شيئاً من كلام الله زائد لا حاجة به فذهبوا إلى القول بأن الزيادة مفيدة للتوكيد . وإلى مثل هذا ذهبت طائفة من النحويين ، ففسروا زيادة الباء في خبر « ليس » و « ما » بأنها للتوكيد .

قال ابن هشام في « المغني » أن الباء زائدة في الخبر ، وأدرجها مع خمسة مواضع أخرى في زيادة الباء(١) . وانتهوا إلى هذا الوجه من التفسير احترازاً من لفظ « الزيادة » التي ليس لها مكان في كتاب الله .

---

(١) ابن هشام : مغني اللبيب ٩١/١ ، طبعة الجمالية بالقاهرة ١٣٢٩ هـ .

ثم جاءت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) فعرضت للموضوع في كتاب « الإعجاز والبيان القرآني »[1] فأحصت الآيات التي جاء خبر « ليس » فيها مقترناً بالباء فكانت ثلاثاً وعشرين آية في مقابل (كذا) ثلاث آيات فحسب ، جاء فيها خبر ليس غير مقترن بالباء . وهي آيات : [النساء ٩٤ ، هود ٨ ، الرعد ٤٣] .

وللأستاذة بنت الشاطىء تفسير لهذا الأسلوب القرآني سأذكره وأعلق عليه . غير أنها عرضت لآيات أُخرى عِدَّتُها أربعون آية تتوزع على السوَر المختلفة في القرآن جاءت فيها ما « النافية » متلوَّة بفعل نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة ١٦ ، الأنعام ٤٤ ، يونس ٥٤] .

ثم أوردت الآيات الأخرى السبع والثلاثين .

وأشارت إلى أن « ما » النافية هذه لم تتبع بالباء على « ما » التي تدخل على الاسم والخبر التي أشرنا إليها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

أقول : قبل أن أعرض لرأي « بنت الشاطىء » في تفسير هذه الظاهرة الأسلوبية : إنها خلطت بين أسلوبين ، وكأنها لم تميز بين « ما » هذه التي أسماها النحويون مشبهة بـ «ليس » ، والأخرى النافية للجمل الفعلية .

لعلها أرادت أن تغض الطرف عن أقوال النحويين وموادهم وما شَرّعوا، وكأنها تريد أن تقول : إن الدرس البياني غير النحوي ، وأنا أوافق هذا المذهب لو أنها صرّحت به ، ولكنها لم تصرّح بذلك .

وعندي أن الآيات التي استشهدت بها السيدة بنت الشاطىء ، التي

---

(١) عائشة عبد الرحمن : الإعجاز والبيان القرآني ، ص ١٦٨ ـ ١٧٧ ، ط . دار المعارف بمصر .

جاءت فيها ما النافية المشبهة بـ « ليس » وقد اقترن خبرها بالباء هو ، نمط من الجُمَلِ المنفية يختلف كل الاختلاف عن نمط آخر من الجُمَلِ الفعلية المنفية بـ « ما » . إن هذا النمط الأخير من الجُمَلِ الفعلية غير تلك الجُمَلِ الاسمية المنفية بـ « ما » التي أشبهوها بـ « ليس » .

وهذا شيء من طبيعة العربية التي تعددت فيها الأساليب ، فقد نتوصل إلى الأسلوب المنفي باستعمال أدوات عدة كل منها يختلف عن الآخر . ألا ترى أننا ننفي بـ « لا » الجملة الفعلية فنقول : لا يستوي الجاهل والعالم ، وننفي بها الجملة الاسمية فنقول : لا عالم مذموم ، وننفي بها الجملة الخبرية كالجملتين المذكورتين كما ننفي بها الجملة الإنشائية كقوله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ إرادة الدعاء ! وقد نتوصل إلى النفي بغير أدوات النفي كقوله تعالى في الجملة الاستفهامية ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وعلى هذا لا يكون النفي بـ « ما » التي أشبهت « ليس » كالنفي بها حين تباشر الجملة الفعلية كما في الأربعين آية التي استشهدت بها الباحثة بنت الشاطىء ، ففي الحالة جرت العربية أن يقترن ما يدعَى في النحو خبراً بـ « الباء » ، ولم تجر طبيعة هذه اللغة وما درجت عليه أن يقترن شيء مما يلي « ما » النافية بالباء إن دخلت هذه على الجملة الفعلية .

قلت : إن هذا نمط من الجمل المنفية بـ « ما » التي أشبهوها بـ « ليس » غير النمط الآخر . ثم كيف جاز للباحثة أن تتوقع اقتران « الباء » بالخبر في الجمل الفعلية المنفية بـ « ما » في حين أن هذا الخبر لا علاقة له بـ « ما » بل هو خبر لـ « كان » كما جرى على ذلك علمنا النحوي[1] .

---

(١) لا أريد أن أعرض لرأي الكوفيين في هذه المسألة التي تنص على أن ما يُدعى خبراً لـ « كان » هو حال في النحو الكوفي .

ثم ألا يجد القارىء أن الأستاذة بنت الشاطىء قد تجاوزت الفهم اللغوي انسياقاً مع أقوال النحاة في جعلها«ليس» و«ما» من حيِّز واحد وذلك لأن كليهما دخل على مبتدأ وخبر وكان الخبر في كل منهما مقترناً بالباء !

أقول : إن العلم اللغوي يفرض علينا أن نقول : إن « ليس » غير «ما» فهذه مادة قديمة فعلية دلَّت على النفي بتركيبها من«أيِسَ» وهو الوجود و « لا » وهي أداة النفي ، وإلى هذا ذهب الخليل بن أحمد[1] . في حين أن « ما » أداة نافية واستخدامها في النفي يجري في أساليب عدة كما بيّنا .

على أن الأستاذة عائشة انتهت من استقرائها لاستعمال « ما » التي اقترن خبرها بالباء إلى القول : وهل يكفي القول بأن الباء زيدت لمجرّد تأكيد النفي ؟

العربية تعرف أساليب عدة للتأكيد اللفظي والمعنوي كالقسم والتكرار وأدوات التأكيد المعروفة . ولا بد أن يكون لكل أسلوب منها ملحظ بياني يميزه عن سواه .

وقد نحسّ في كل هذه الآيات التي اقترن فيها خبر « ما » بالباء ، ان المقام مقام جحد وإنكارٍ تقريراً لهذا النفي ، انتهى كلام الأستاذة الباحثة ، وهذه هي النتيجة التي استقرتها بعد هذه الرحلة في هذه الآيات الكريمة .

ثم أرادت أن تؤكد هذه النتيجة فذهبت معتمدة على آيتين في سورة المجادلة وسورة يوسف وهما :

﴿ مَا هُنَّ أُمَّهاتِهِم ﴾ [سورة المجادلة : الآية ٢] .

---

(١) أنظر مخطوطة العين مادة « أيِسَ » ، وأنظر لسان العرب، مادة: (ليس) .

﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ [سورة يوسف : الآية ٣١] .

فقالت : ولعله قد أغنَى أي (الباء) في آيتي المجادلة ويوسف ، التقرير المستفاد من القصر بعدهما : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ من الآية نفسها في سورة المجادلة .

﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيم ﴾ من الآية نفسها في سورة يوسف .

أقول : ولا اعرف وجهاً لاقتران الباء في خبر « ما » هذه لأن « المقام مقام جحد وانكار » . ثم إن التقرير الذي أعقب الآيتين في سورتي المجادلة ويوسف لا ينفي أن يكون حيّز الآيتين في قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ وقوله ﴿ مَا هَذَا بَشَراً ﴾ حيزاً للجحد والنفي ولا يستدعي التقرير بعدهما أن يَعرى الخبر في كل منهما عن « الباء » وما قيمة « الباء » في تأكيد الجحد والإنكار . إن هذا لهو تخيّل لا أراه حقاً .

لقد كان على الباحثة لتقرير رأيها أن توسع دائرة الاستقراء فتشمل طائفة من النصوص الإسلامية الأولى ، وما جرى عليه كتّاب العربية في عهد بني أُمية والقرون الأربعة من عصر بني العباس ، ولا أقول أن تستقري الشعر الجاهلي لعلمي أن الشعر لا يصلح أن يكون أدوات في هذا الباب ، والسبب معروف .

فهل صنعت شيئاًمن ذلك ؟ الجواب : لا .

أقول : إنّ الاستقراء الذي قمت به لا يعين على أن أقرر مع بنت الشاطىء : « ان المقام مقام جحد وإنكار » فاستدعى ذلك اقتران الخبر بالباء !

قلت : إنّ الباحثة لم تفرّق بين « ما » هذه التي قالوا إنها أشبهت « ليس » وبين « ما » الداخلة على الجملة الفعلية لنفيها كقوله تعالى مثلاً :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [سورة الإسراء : الآية ١٥] .

وذلك لأنها انتهت في آخر كلامها على هذا الموضوع فقالت :

« كما أغني عنها (أي الباء) في خبر « ما كان » ان النفي بهذا الأسلوب يفيد الجحد » ، أقول : كأن بنت الشاطىء هذه تعد « الخبر » في الآيات المصدرة بالفعل « كان » منفياً بـ « ما » خبراً لـ « ما كان » وليس للفعل « كان » وحدها .

هذا فهم غريب ونحو جديد قائم على الجهل بمادة النحو ذلك أننا لا نعرف من العربية فعلاً ناقصاً يتطلب الاسم والخبر هو « ما كان » ! لا ندري أكانت بنت الشاطىء تظن خطأً أن « ما كان » نظير «ما زال» و« ما برح » و« ما فتىء » من لزوم مجيء النفي قبل هذه الأفعال التي تدل على الاستمرار ؟!

ثم تعود الأستاذة الباحثة إلى الآيات المنفية بـ « ليس » فتقول :

وننظر في خبر « ليس » فيلفتنا البيان القرآني إلى وجوب التفرقة بين الجمل الخبرية منها ، والجمل الاستفهامية . فحيث يجيء النفي بـ « ليس » في الجمل الخبرية في مقام الجحد والإنكار اقترن الخبر بالباء ، كما في آيات : البقرة ٢٦٧ : ﴿ **ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلاّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ** ﴾ وهكذا في إحدى عشرة آية أُخرى جاء الخبر فيها مقترناً بالباء .

وتعلّق بنت الشاطىء على هذه الآيات فتقول :

ولا يستوى البيان بهذه الباء ، والاستغناء عنها في خبر « ليس » بأسلوب النفي البسيط المعتاد ، حين يكون قائل الجملة الخبرية غير مستيقن مما ينفيه ، بل يجري لسانه بهذا النفي وفي نفسه من الأمر شيء يمنع من

التقرير والجحد كالذي في آية « الرعد » الآية ٤٣ : .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَىٰ باللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

أو يكون المقام في حاجة إلى التأكد قبل نفي الخبر ، كآية « النساء » الآية ٩٤ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » .

أو يغني عن تقرير النفي بالباء ، تعقيب على الجملة الخبرية بما ينقلها من الإخبار عن غيبٍ لم يقع إلى ماض قد تقرر وكان ، كآية « هود » الآية ٨ :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ ، أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وهذه الآيات الثلاث فحسب (كذا) هي التي لم يقترن خبر ليس فيها بالباء في الكتاب العربي المبين ـ انتهى كلام الأستاذة عائشة عبد الرحمن .

أقول : لم يتضح الفرق بين الأسلوبين (أسلوب اقتران الخبر بالباء وأسلوب عدم اقترانه) ذلك أن النفي حاصل في كل منهما وأن الباحثة قد قالت بصدد الأسلوب الثاني أن القائل قد يكون « في نفسه من الأمر شيء يمنع التقرير والجحد » .

أقول : وكيف السبيل إلى هذا ، وهل اتضح شيء من هذا في الآية الكريمة (الرعد ٤٣) ؟ أما تعليقها على الآية ٨ من سورة هود فهو من

المعميات التي فيها من الغموض والإبهام ما لا يمكن أن يكون طريقاً للبيان بله الإعجاز .

ثم ألم يكن من الحق أن تقرر هذه الملاحظ بعد استقراء لطائفة أخرى من النصوص وعلى رأسها الحديث الشريف مثلاً ؟

وما زال شيء آخر في الكلام على استعمال « ليس » في كتاب « بنت الشاطىء » فهي تقول بعد الانتهاء من هذا الباب مما يتصل بالجمل الخبرية :

أما الجمل الاستفهامية ، فيطَّرد مجيء الخبر فيها مقترناً بالباء ، لا يتخلّف . وما من آية منها ، يمكن أن تحتمل نفياً أو تأكيداً لنفي ، بل ينتقض النفي فيها جميعاً ، ويصير إلى إثبات مؤكد وتقرير ملزم .

ثم تقول الأستاذة عائشة عبد الرحمن :

ويبلغ التقرير والإثبات فيها ، أن يستغني عن جواب المستفهم عنه ، أو يجاب عنه بلفظ « بلى » المختص بإيجاب ما يستفهم عنه منفيّاً .

فلنتدبّر كل ما في القرآن من آيات استفهامية لجُمل منفية بـ « ليس » ، والخبر فيها صريح غير مؤوَّل : قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ ، قَالُوا بَلىٰ وَرَبِّنَا﴾ [سورة الأنعام : الآية ٣٠] ثم أتت بعشر آيات أخرى من سُوَرٍ مختلفة جاء فيها الخبر مقترناً بالباء فقالت :

النفي في هذه الآيات جميعاً قد انتقض وخرج إلى تقريرٍ باتٍّ وإثباتٍ حاسم . فهل جاء معنى التقرير والإثبات في هذه الآيات ، من خروج الاستفهام عن معناه الأصلي ، على ما قرره علماء البلاغة ؟

معروف أن الاستفهام قد يخرج إلى هذا الوجه من التقرير ، كما قد

يخرج إلى وجوه أخرى كالاسترحام والضراعة أو النفي والزجر والوعيد أو التوقّع والانتظار . . .

وهذه الآيات خاصة بالاستفهام عن منفيٍّ بليس ، وقد انتقض النفي فيها جميعاً وخرج إلى التقرير لا إلى أيّ وجه آخر من الوجوه التي يعرفها البلاغيون .

ومن حيث اطَّرد اقتران الخبر فيها بالباء ، تعيّن أن يكون لهذه الباء أثرها في تحديد الدلالة البيانية .

فلو قلنا مثلاً : ألست غافلاً عما حولك ؟ أليس الصبح قريباً ؟

احتمل الاستفهام ان يكون على معناه الأصلي من طلب الفهم ، وأن يخرج إلى التوبيخ أو التنبيه أو السخرية والتهكم أو التوقع والانتظار .

ولا شيء من هذه المعاني ، مما تحتمله آيات الاستفهام المقترن خبر ليس فيها بالباء ، وإنما هي للتقرير والإثبات لا لمعنى آخر .

وهذا هو سر الباء التي قالوا إنها زائدة على الخبر لمعنى التأكيد .

ثم تلخص السيدة بنت الشاطىء فتقول : وخلاصة ما هدى إليه الاستقراء لآياتها في البيان القرآني :

إن الجمل الخبرية المنفية بـ « ما كان » لا يقترن خبرها بالباء . ووجه الاستغناء عن الباء ، أن النفي بهذا الأسلوب يفيد الجحد أصالة ، شأنه شأن أسلوب الجحد في الفعل : ﴿ مَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ .

ـ حيثما جاء الخبر منفياً بـ « ما » أو « ليس » ، في الجمل الخبرية ، واقترن الخبر بالباء ، أفادت تقرير النفي بالجحد والإنكار .

وتلزم الباء خبر « ما » و « ليس » في هذا السياق ، في البيان القرآني .

ولا تتخلّف الا حين يكون المقام مستغنياً عن تقرير النفي ، أو محتملاً لشك في الخبر .

ـ في الجمل الاستفهامية ، يطّرد اقتران خبر ليس بالباء ، وبها ينتقض النفي ويخرج الاستفهام إلى إثبات حاسم وتقرير باتٍّ ، لا إلى أي وجه آخر من سائر الوجوه التي يعرفها علم البلاغة في خروج الاستفهام عن معناه الأول في أصل اللغة .

ثم تقول الباحثة :

وإذ كشف حرف الباء عن سرّه في البيان الأعلى ، يبدو القول بزيادته مما يجفوه حس العربية المرهف . ولا يلطف من هذه الجفوة أن نعلم أنهم لم يعنوا بالزيادة مجرد الحشو أو الفضول ، بل أدرجوها تحت الحكم العام لمعنى التأكيد بالباء الزائدة .

ولا أدري ما إذا كان من المجدي ، أن أقول في هذه الباء غير ما قرره النحاة كي يبقى حرفاً أصلياً غير زائد ؟ وتظل على أصيل معناها في الإلصاق ، وتعمل عملها المباشر في الخبر ملصقة به غير مقولٍ بزيادتها ، ومنهما معاً يستفاد خبر المنفيّ بما وليس .

انتهى كلام الأستاذة بنت الشاطىء .

وأريد أن أتناول هذه الآراء كما بدت في « خلاصتها » فأقول :

ليس من جُمل خبرية منفية بـ « ما كان » ، ذلك أنها جُمل فعلية صدِّرت بالفعل « كان » منفياً بـ « ما » وعلى هذا يكون الخبر للفعل « كان » وليس لـ « ما كان » كما جاء في خلاصة الباحثة . ولا أعرف أحداً من النحاة وأهل البيان قال بهذا .

ثم قررت : إذا اقترنت الباء بالخبر لـ « ما » و « ليس » في الجمل الخبرية أفادت الباء تقرير النفي بالجحد والإنكار .

أقول لو صح هذا فلِمَ كان العكس في الجمل الاستفهامية حسب ما أفادت به الأستاذة الدكتورة حيث أن النفي ينتقض (كما أفادت) ويخرج الاستفهام إلى إثبات حاسم وتقرير بات ؟

أيكون حرف الباء مؤدياً لهذا وذاك مما يناقض أحدهما الآخر بين الجمل الخبرية والجمل الإنشائية (الاستفهام) !

إن هذا لرأي فيه الكثير من الجرأة ولا بد لتقريره من استقراء وافٍ في العربية نأتي فيه على حديث رسول الله ﷺ وكلام أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ ثم ما خلفه لنا الكتّاب المشاهير في العربية . إن هذا أمر يفرضه العلم اللغوي وذلك لأن القرآن نزل بهذه اللغة السمحة التي درج عليها المتقدمون منذ جاهليتهم إلى إسلامهم ثم ما تلا ذلك من الأعصار .

وإذا كان هذا ما انتهى اليه الاستقراء في جملة آيات قليلة بالقياس إلى مادة العربية العظيمة ، فلِمَ خفي أمره عن أهل البيان والإعجاز الذين أبلَوا البلاء الحسن في درس لغة التنزيل والوقوف على كثير من أسرارها ؟

ولقد أشارت الباحثة إلى أن القول بزيادة الباء غير سديد ، وأنا أشاطرها هذا الرأي . وعلى هذا فليس من ضير أن يكون الخبر من الجار والمجرور لا لأن الباء أفادت ما أفادت مما ذهبت إليه الباحثة ، ولكن لأن وجود الباء في الخبر أَلِفَ أسلوباً خاصاً كأسلوب الخبر مجرداً من الباء .

وإذا كانت الباء مفيدة لما ذهبت إليه في الجمل الخبرية فكيف نقول في قول الشنفرى :

إذا مُدَّتِ الأيدي إلى الزادِ لم أكُنْ بأعجَلِهِمْ إذ أجشعُ القومِ أعجَلُ

فهل تفيد الباء هنا في خبر « يكون » المنفي المجزوم تقرير الجحد والإنكار ؟

أقول : لو أسعف الوزن الشنفرى ، لجاز أن يأتي بالخبر غير مقترن بالباء .

ومن المفيد ألّا نودّع الأستاذة عائشة بل نظل معها في درسها البياني الذي عرضت لجملة حروف قدروها محذوفة ومضوا في تأويل الآيات على تقدير حرف محذوف وهو مراد[1] .

ومن ذلك حذف حرف « لا »مقدراً في آيات :

قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ [سورة يوسف : الآية ٨٥] .

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا . . . ﴾ [سورة النساء : الآية ١٧٦] .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [سورة البقرة : الآية ١٨٤] .

أما الآية الأولى فقال النحويون فيها أنَّ « لا » تحذف اطّراداً في جواب القسم ، ومنه قول امرىء القيس :

فقلتُ يمينَ اللَّهِ أبرحُ قاعداً ولو قَطَّعوا رأسي لديكِ وأوصالي

وقالت الدكتورة عائشة :

والذي نفهمه ، هو أنه متى اطّرد الحذف ـ كقولهم ـ فالسياق حتماً مستغن عن المحذوف ، ولا وجه إذن لتقدير الحرف ثم تأويل حذفه .

لأن السياق متى أعطى المعنى المراد،مستغنياً عن هذا الحرف أو

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ، ص ١٧٨ .

عن غيره ، كان ذكره من الفضول أو الحشو الذي يتنزّه عنه الكلام البليغ ، فضلاً عن البيان المعجز . وأراهم في تقدير حرف نفي محذوف ، حملوا « تفتأ » على « ما زال » أمّ الباب من أفعال الاستمرار . وكأن قد فاتهم أن « زال » لا تكون فعل استمرار إلاّ منفية ، فإذا لم يسبقها حرف نفي فهي تامة بمعنى الزوال نقيض البقاء . واستعمالها تامة ، كثير في العربية . وهي تتصرف فيه : فعلاً ومصدراً واسم فاعل ومفعول وزمان ومكان . . .

على حين تفيد « فتىء » معنى الاستمرار أصالة مستغنية عن حرف النفي ، ولا تأتي تامة في العربية ، فيما أذكر . وقلّما تتصرف فيها إلا بالفعل ماضياً ومضارعاً : فتىء يفتأ . ولا ينفك عنهما معنى الاستمرار .

انتهى كلام الأستاذة عائشة .

أقول : إن قول الأستاذة : « إن السياق مستغن عن المحذوف متى اطّرد الحذف » سديد وأنا أرى أن ذلك كثير في العربية فمتى دلّ السياق على المحذوف فمن البلاغة ألا يذكر عملاً بقولهم : « البلاغة الإيجاز » . ولكني لا أوافق قولها : ولا وجه إذن لتقدير الحرف ثم تأويل حذفه ، ذلك أن الحرف منظور ومتصوَّر ، وهو شيء يفرضه تمام المعنى ، فالتقدير إذن وارد ، وتأويل الحذف كما أشرنا وهو توَخي اللون البلاغي في « الإيجاز » . غير أني أود أن أعلّق على ما جاء في حشو كلام المؤلفة الفاضلة فأقول :

إن النحاة والمفسّرين لم يفتهم كما تصوّرت الباحثة أن « زال » لا تكون فعل استمرار إلا منفية . إنهم يعرفون ذلك معرفة كافية .

وإنهم عرفوا أن « ما زال » هذه نظير ما بَرِح وما انفك أفعال ألحقوها بالأفعال الناقصة ، وإنهم عرفوا أن « ما زال » غير الفعل « زال يزول » من الزوال ، لا كما توهمت الباحثة أن هذا الفعل تامّ غير « ما زال » الناقص . هذه مسائل فرغ القوم منها نحاة ولغويون ، وليس ظن الأستاذة عائشة في

أنهم غفلوا عن ذلك ، إلا محض توهم وخطأ . وكأن الباحثة أرادت أن تصحح خطأً تخيلّته في حين أنه غير موجود ، فقالت : واستعمال « زال » تامة كثير في العربية . وهي تتصرف فيه فعلاً ومصدراً واسم فاعل . . .

أقول : إن هذا مما يعرفه الشداة الصغار فضلاً عن أهل العلم . والفعلان مختلفان معنىً واستعمالاً . ولا بد من أن أعلّق على قولها : « إن الفعل « فتىء » يفيد معنى الاستمرار أصالةً مستغنياً عن حرف النفي » .

أقول : والذي عرفته في كتب اللغة والنحو أن : ما فتِئتُ وما فتَأت أذكره : لغتان بالكسر والنصب . أي ما بَرِحت وما زلت ، و لا يستعمل إلا في النفي ، ولا يُتكلَّم به إلا مع الجحد ، فإن استُعمل بغير « ما » ونحوها فهي منويّة على حسب ما تجيء عليه أخواتها . قال : وربما حذفت العرب حرف الجحد من هذه الألفاظ وهو منويّ ، وهو كقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ أي ما تفتأ . ورُوِيَ عن أبي زيد قال : تميم تقول أفتأتُ ، وقيس وغيرهم يقولون فتِئت . تقول : ما افتأت أذكره إفتاءً، وذلك إذا كنت لا تزال تذكره ، وما فتئت أذكره أَفتأُ فَتْأً . وفي نوادر الأعراب : فتِئت عن الأمر أفتَأ إذا نسيته وانقَدعْت .

هذا ما جاء في مادة « فتىء » فأين معنى الاستمرار فيها ؟ هي نظير زال وبرح سواء بسواء . وعلى هذا يكون حذف حرف النفي عارضاً لها كما يعرض لأخواتها كما جاء في كتب اللغة .

وقد رأينا أنها جاءت تامة لها استعمال خاص وليس كما ظنّت الباحثة بنت الشاطىء . ثم إنها ذكرت « أن » « فتىء » قلّما تتصرف وقد رأينا أنها تتصرف .

أقول: ولا يحق للباحث الجاد أن يقطع في هذه المواد بشيء حتى يكون على ثقة من الأمر ، وذلك بالرجوع إلى المظان الموثقة لا أن يتخيل ما

يريد أن يقول فتزوّق له الذاكرة أشياء تبتعد قليلاً أو كثيراً عن العلم .

ومن الحذف الذي أجازوه بغير اطِّراد ما ذكره ابن هشام في « المغني » أنه قيل به في آية :

﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ على تقدير : لئلاّ تضلّوا . ثم أضاف :

وقيل : المحذوف مضاف ، أي كراهة أن تضلّوا .

قالت الأستاذة بنت الشاطىء :

والآية من آيات الأحكام في تشريع المواريث . وسياقها مستغن تماماً عن تقدير حرف محذوف لم يجد البيان القرآني حاجة إلى ذكره . إذ لا يخطر على البال ، إيهامٌ أن يكون المعنى : يبيِّن الله لكم لتضلّوا ! وإنما يبيّن الله لنا ما نتّقي به الضلال .

ومتى أعطي للسياق المعنى المراد مستغنياً عن الحرف الذي قدروه محذوفاً ، فذكر المحذوف الذي لا حاجة إليه ، يأباه البيان العالي ، إذ لو كان الحذف مما يوقع في شبهة إبهام ، لاقتضى المقام ، في آية تشريع ، وجوب ذكره دفعاً لأي وَهْم أو لَبْس .

أقول : إذا كان من دليل على المعنى كأن يكون الكلام واضحاً لا لَبْس ولا إبهام ، فمن الفضول أن يقدَّر محذوف لأن المحذوف متوهّم لا وجود له .

ومثل هذا الكلام على الحذف وعدمه ما قيل في آية الإفطار والفدية في تشريع أحكام الصيام :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ

عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَه فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [سورة البقرة : الآيتان ١٨٣ - ١٨٤] .

إن الحذف في هذه الآية على رأي طائفة من النحاة والمفسّرين هو في قوله تعالى « يطيقون » والتقدير عندهم « لا يطيقونه » .

قال الإمام الطبري في « تفسيره »[١] وقد ذهب إلى أن الآية منسوخة :

« قال بعضهم ، كان ذلك في أول ما فرض الصوم ، وكان من أطاقه من المقيمين - غير المسافرين - صامه إن شاء ، وإن شاء أفطره وافتدى فأطعم لكل يوم أفطره مسكيناً ، حتى نُسخ ذلك ، فلم تنزل الرخصة إلا للمريض والمسافر » .

والنسخ كان في الآية التالية بعدها وهي :

﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [سورة البقرة : الآية ١٨٥] .

على أن الإمام الطبري ذكر بعد القول بنسخ الحكم في الآية قول آخرين : « لم ينسخ ذلك ولا شيء منه . وهو حكم مثبت من لَدُن نزلت هذه الآية إلى قيام الساعة »[٢] .

وعن « عطاء » فيمن يجوز له الإفطار والفدية : « هو الكبير الذي لا يستطيعه بجهد ولا بشيء من الجهد . فأما من استطاع بجهد فليصمه ، ولا عذر له في تركه »[٣] .

---

(١) تفسير الطبري ٢/٧٧ .
(٢) المصدر السابق ٢/٨٢ .
(٣) المصدر السابق : ٢/٧٧ .

وجاء في « البحر المحيط » :

« وجوَّز بعضهم أن تكون « لا » محذوفة فيكون الفعل منفياً ، وتقديره : وعلى الذين لا يطيقونه . حذف « لا » وهي مرادة كقول الشاعر :

آليْتُ أمدَحُ مقرفاً أبداً ... يبقَى المديحُ ويذهَبُ الرِّفدُ

وقال امرؤ القيس :

فقلت : يمينَ الله أبرحُ قاعداً ... ولو قطَّعوا رأسي لديك وأوصالي

وقال آخر : . . . .

ثم عقّب أبو حيّان :

« وتقدير «لا» خطأ ، لأنّه مكان إلباس . ألا ترى أن الذي يتبادر إليه الفهم هو أن الفعل مثبت ، ولا يجوز حذف « لا » وإرادتها إلا في القَسَم ، والأبيات التي استدلّ بها هي من باب القسم . وعلة ذلك مذكورة في النحو »[1] .

هذا شيء مما قيل في هذه الآية في الحذف وعدمه .

ثم تقول الأستاذة بنت الشاطىء :

وآن لنا بعد هذا أن نتدبر الآية ونعرض عليها ما قالوه في تأويلها .

وتنتهي فتقول :

نستبعد تماماً أن تكون « لا » حذفت هنا وهي مُرادة ، فالآية من آيات التشريع والأحكام ، وغير متصوَّر أن يعبِّر عنها القرآن بالإيجاب والثبوت ، فنتأولها على النفي والحذف . ثم قالت :

---

(١) البحر المحيط ٢/٣٦ .

ومن حيث يفرض علينا المنهج أن نرجع إلى النص القرآني فيما اختلفوا وتنازعوا فيه ، نرى في لفظ « يطيقونه » ما يهدينا إلى سرّ الكلمة ومناط الحكم .

واضح أن الذين تأوّلوا الآية على تقدير حذف « لا » ـ صراحةً أو مآلاً ـ فَهِموا « يُطيقونه » بمعنى « يستطيعونه » .

وليست الكلمتان : يطيقونه ويستطيعونه ، سواء .

في لفظ الاستطاعة ، حِسُّ الطواعية والمواتاة والقدرة ، ولو كان المسلم بحيث يستطيع الصوم فالتكليف قائم لا تقبل عنه فدية ولا قضاء .

أما الطاقة في العربية أقصى الجهد ونهاية الاحتمال ، وحين يقول العربيّ لصاحبه : هل تطيق هذا ؟ لا يقولها إلا وهو يقدر أن هذا مما يحتمل ولا يستطاع .

وبهذه الدلالة على أقصى الجهد ونهاية الاحتمال ، نقل لفظ الطاقة إلى المصطلح العلمي في الطبيعة والرياضيات .

ثم استقرت السيدة عائشة عبد الرحمن الاستعمال القرآني للكلمة فخلصت إلى أن المعنى هو أقصى الجهد وطاقة الاحتمال وانتهت إلى ما انتهى إليه الزمخشري من أن معنى « يطيقونه » يتكلفونه على جهد منهم وعسر[1] .

أقول : وأنا مع من يقدر حرف النفي « لا » ، وهذا لا يعني أن المعنى مجرد القدرة أو الاستطاعة بل مع هذا شيء من التكلّف للعسر . وما أظن أن العربية تأبى أن يكون معنى « الإطاقة » التكلّف والاستطاعة مع احتمال

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ، ص ١٨٣ ـ ١٨٤ .

العسر والأذى ، وفي الشواهد ما يدل على هذا . قال أبو الطيب المتنبي :

لحمل كل قلبٍ ما أطاقا

ومن المعلوم أن هذا الاحتمال من أشق الأمور وإن كان المقام مقام غزل وتشبيب .

ولنجتزىء بهذا القدر من موضوع الباء وزيادتها في خبر « ليس » و « ما » ، وموضوع حذف أداة النفي ولنعد لضرب آخر من نحو القرآن فنقول :

اجتهد النحاة المتقدمون اجتهاداً عجيباً استقروا فيه لغة العرب المشهور منها والنادر وانتهوا بعد هذا الاستقراء إلى قواعد وضوابط وأصول هي النحو العربي . وإذا كانت بداية النحو استجابة لحاجة المعرّبين الذين فقدوا أو كادوا يفقدون السليقة العربية ، فإنه انتهى إلى شيء يتجاوز تلك الحاجة . لقد صار النحو علماً يقصد لذاته كسائر العلوم ، بل قل إنه صار دأب جماعة عكفت عليه استجابة لهوى في نفوسهم . ومن هنا تجاوز في منهجه ومادته أن يكون علماً مندرجاً في العلوم اللسانية . لقد دخل فيه شيء من أصول المنطق في مادته ومنهجه فابتعد عن حقيقته .

ولعل من انحراف النحويين عن السنن أنهم لم ينصرفوا إلى كتاب الله كل الانصراف فيتبيَّنوا بعد الاستقراء الوافي القواعد النحوية التي تنتظم كلماته وآياته . ومن هنا كان علينا أن نعود إلى كتاب الله لنقف على المادة النحوية فيه .

أقول : إن لغة القرآن تدلنا على أن العربية قد سارت مسيرةً واسعة المدى ، فأنت تجد في هذه اللغة من القواعد ما لا تستطيع أن تلم أشتاتها في قاعدة واحدة ذات الموضوع الواحد . ولعل هذا شيء من عبقرية هذه

اللغة الواسعة العظيمة ، وإن من فوائد هذا الكتاب الجليل أن يطلعنا على المسيرة التاريخية التي قطعتها هذه اللغة السمحة .

إنك تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾[1] ، ثم نقرأ قوله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾[2] .

في هاتين الآيتين جاء الفعل المضارع مقترناً بالفاء بعد نفي بـ « لا » ، وكأن هذا الفعل جاء جواباً للنفي ، فكان منصوباً في الأولى ، مرفوعاً في الثانية . والنصب على أن الفاء سببية والفعل بعدها مسبب عن الفعل الذي قبلها . والرفع في الثانية على أن الفاء عاطفة ، والفعل المقرون بها معطوف على سابقه وهو مشارك له في الحكم . ويصح العطف في الجملة الأولى .

ولعل كون هذه الفاء سببية يتضح من إرادة المتكلم ، وعلى هذا يقضي على أهل النار بالموت ، فلما تبين قضاؤه من الآية كان القول بأنها سببية أولى من كونها عاطفة .

وكأنّ الفاء في قوله « فيعتذرون » عاطفة ، لأن المراد أن الله تعالى لا يأذن لأهل النار أن ينطقوا وليس لهم أن يعتذروا مما كان من ذنوبهم ، وليس من وجه أن تكون الفاء غير عاطفة .

ولقد عرض الفرّاء في « معاني القرآن » لهاتين الآيتين وسبب اختلاف إعراب الفعلين المقرونين بالفاء فيهما فقال[3] .

« نويت بالفاء أن تكون نسقاً على ما قبلها ، واختير ذلك لأن الآيات

---

(١) سورة فاطر : الآية ٣٦ .

(٢) سورة المرسلات : الآيتان ٣٥ ـ ٣٦ .

(٣) معاني القرآن ٣/٢٢٦ .

بالنون . فلو قيل : فيعتذروا لم يوافق الآيات . وقد قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِم فَيَموتُوا ﴾ وكلٌ صواب » .

والذي نأخذه من كلام الفرَّاء أن « الفاء » في كلتا الآيتين يصح أن تكون سببية كما تكون عاطفة ، وأنها خلصت للنسق في الآية الأولى لتكون متناسبة مع الآيات الأخرى في أنها جميعاً تنتهي بالنون فيتم التناسب . والتناسب وإن لم يكن ضرورة ملزمة فإن الأخذ به أولى . على أن لدينا من الآيات ما لم يراع فيها هذا التناسب ، قال تعالى :

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً ﴾[1] .

والتناسب يقضي أن يطلق الفتح في « أن أزيد » فيكون « أن أزيدا » ولكن الآية عدلت عن التناسب في هذه الكلمة خلافاً لما عرفنا من شواهد أخرى كقوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾[2] .

ولا أريد أن أتناول موضوع التناسب هنا لأني سأعرض له في فصل خاص .

ولا بد من الوقوف على مسائل نحوية ذات دلالة في أنها تظهر أن العربية مرت بأحقاب طويلة فكتب أن تتطور وتنتهي في نحوها إلى قواعد ثابتة في أبنيتها . ومن غير شك إن هذا من المادة اللغوية وإن عرض له النحويون .

---

(١) سورة المُدَّثِّر : الآيات ١١ ـ ١٧ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٦٧ .

ويحسن بي أن أقرر أن الكثير من الموضوعات النحوية مواد لغوية ، غير أن النحاة اختصوا بشيء لا نجده من مواد اللغويين ، ذلكم هو الإعراب أي الضبط بالحركات لأواخر الكلمات معربة كانت أم مبنية .

ومن هذه المواد اللغوية التي عرض لها النحويون فكان كتاب الله الكريم المظنّة المفيدة في ضبطها والحفاظ عليها مسألة ما يسمى بـ « الجمع المذكر السالم » .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى . . .** ﴾[1] .

أقول : إن « الصابئون » في الآية الكريمة جاءت بالواو والنون وحقها أن تكون « الصابئين » لعطفها على اسم « إن » المتقدم ؛ ولكننا قد نجريها على أنها لغة من لغات العرب على نحو « اللذون » التي وردت بالواو في لغة هذيل .

غير أن النحاة لا يفزعون إلى القول بأنها لغة من لغاتهم إلا حين لا يجدون مخرجاً في تأويلهم . إنهم أوّلوا « الصابئون فقالوا : إن العرب تخرج المشرك في المنصوب الذي قبله من النصب إلى الرفع على ضمير فعل يرفعه أو استئناف ولا يعملون النصب ، ويستشهدون بقول ضابىء بن الحارث البرجمي :

فمنْ يَكُ أَمسَى بالمدينةِ رَحلُهُ فإني وَقَيّار بها لغريبُ[2]

ومن العرب من يجعل إعراب ما يجمع بالواو والنون في النون ، وقد جاء منه قول سحيم :

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦٩ .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/١٧٢ .

دعـانيَ من نجـدٍ فـإنَّ سنينَـه لعِبنَ بنـا شِيباً وشَيَّبْنَنـا مُـرْدا[1]

أقول : ومن هنا كان الدرس القرآني درساً في تاريخ العـربية وتطورها .

وإذا عُجنا على جمع التكسير أو اسم الجمع وجدنا في آي القرآن مادة تاريخية ذات فائدة عظيمة في بناء هذه اللغة وتطورها .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَـامِ لَعِبْرَةً نَسْقِيكُمْ مِمَّـا فِي بُطُونِهِ ﴾[2] .

كأن « الأنعام » في الآية الكريمة « نَعَمَ » وهو اسم الجمع بدلالة الضمير في « بطونه » فهو ضمير إفراد ، وإسم الجمع يُعامل في العربية معاملة المفرد حملاً على لفظه لا معناه كما سنرى .

غير ان « الأنعام » على « أفعال » من أبنية جموع التكسير ، ولكن العربية في عصر القرآن تحفل بما حفلت به لغة العرب في تلك الأحقاب المتقدمة .

وقد علَّق أبو عبيدة في « المجاز »[3] على هذا الموضوع فقال : الأنعام يُذكَّر ويؤنَّث ، وقال آخر : المعنى يدل على النعم لأن النعم يُذكَّر ويؤنَّث كما في قول الراجز :

أكـلَّ عـامٍ نَـعَـمٌ تحـوونـه يلقـمُـهُ قَـوْمٌ وتُـنتِـجُـونَـهُ
أربابهُ نَوْكَى ولا يَحمُونَه

---

(١) شرح المفصّل لابن يعيش ١١/٥ .
(٢) سورة النحل : الآية ٦٦ .
(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٣٦٢/١ .

والرجز لقيس بن الحصين الحارثي كما في « الخزانة » ١/١٩٦ ، والعيني ١/٥٢٩ ، والكتاب ١/٥٣ .

ومن هذه الفرائد القديمة ما جاء في قوله تعالى : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾(١) .

أقول : إنّ « الطفل » في الآية اسم جمع يقابل « الأطفال » أي أن البناء كما يكون مفرداً يكون دالاً على الجمع ، وهذا من الكلم القديم الذي لا نعرفه إلاّ في كلام الله ـ جلت عظمته ـ.

ومن هذه الفرائد المفيدة « السحاب » في قوله تعالى :

﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾(٢) لقد وصف السحاب بالجمع وهو « الثقال » ، على أنه وصف صفة مفردة كما في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾(٣). فالسحاب قد يكون مفرداً ، وقد يكون فيه معنى الجمع ، غير أن هذا نفيده مما ورد في الآيتين اللتين أشرنا إليهما . وهذا من بديع لغة القرآن التي حفظت لنا هذه الفرائد التاريخية .

ومن المفيد أن أشير إلى قوله تعالى : ﴿ . . . حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ المَاء ﴾(٤) .

نتبين في هذه الآية أن « السحاب ثقال » ثم جاء ضميره مفرداً مذكراً في قوله تعالى « سقناه » .

---

(١) سورة النور : الآية ٣١ .
(٢) سورة الرعد : الآية ١٢ .
(٣) سورة البقرة : الآية ١٦٤ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٥٧ .

وهذا أيضاً من بديع القرآن في حفظ هذه الذخائر المفيدة من الناحية التاريخية .

ومثل « السحاب » « الفلك » في لغة القرآن فهي تقدّم لنا فوائد لغوية تاريخية على نحو ما عرفنا في « السحاب » .

قال تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْفُلْكُ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾[4] .

فقد وصف « الفلك » بالمشحون وهو مفرد مذكر في الآية الأولى ، وقد أخبر عن « الفلك » بفعل أسند إلى نون الإناث « وجرين » في الآية الثانية ، وقد وصفت « الفلك » بصفة هي جمع تكسير « مواخر » في الآية الثالثة ، وقد عاد على « الفلك » فعل يعود إلى ضمير مؤنث في الآية الرابعة . وهذا كله من خصائص لغة القرآن وما قدمت لتاريخ العربية .

ويحسن بي أن أتلوَ قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾[5] فأنت تجد أن « النحل » اسم جمع مؤنث بدلالة الفعل بعده وقد أسند إلى ياء المخاطبة .

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١١٩ .
(٢) سورة يونس : الآية ٢٢ .
(٣) سورة النحل : الآية ١٤ .
(٤) سورة الحج : الآية ٦٥ .
(٥) سورة النحل : الآية ٦٨ .

هذه نماذج تتصل بالاسم بين الإفراد والجمع تظهر ما كانت عليه العربية في عصورها المتقدمة في النظر إلى الاسم في إفراده وجمعه .

ومثل هذه الفرائد كلمة « النخل » في آي القرآن فقد وردت في قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾[2] .

فالنخل في الآية الأولى وصف بمذكر ، وفي الآية الثانية وصف بجمع مؤنث ثم عاد عليه ضمير غائب مؤنث مفرد .

غير أن النحويين عَدّوا الجمع على وجه العموم مؤنث أو أن ما جاء مما عد مذكراً بالوصف أو الضمير أو الفعل إنما هو من أسماء الجمع أو أسماء الجنس .

ومن هذه الفرائد النفيسة من المواد اللغوية التي حفلت بها لغة التنزيل ما ورد في آيةٍ يختلف فيها الضمير عما يرجع إليه من حيث العدد ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم ﴾[3] . فالذهب والفضة شيئان ، وكان ينبغي أن يكون الضمير الذي يرجع إليهما ضمير تثنية ، غير أنه جاء ضمير المفردة ، أو جمع ما لا يعقل فهو مخالف في الحالين .

ولا أريد أن أقول بتأويل الأقدمين أن الذهب والفضة كنوز ، والمعنى على هذا « الذين يكنزون الكنوز ذهباً وفضة . . . » .

---

(١) سورة القمر : الآية ٢٠ .

(٢) سورة ق : الآية ١٠ .

(٣) سورة التوبة : الآية ٣٤ .

وقالوا : أن يكون في الآية اكتفاء بأحد الأسمين عن الآخر ، وهو هنا الفضة ، فهي التي تطابق الضمير . وهذا مثل قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾[1] .

وقالوا في تأويل هذا أقوالاً أخرى .

وعندي أن هذه التأويلات ليست بشيء ، وأن ما وقف عليه النحويون ولم يجدوه متفقاً وقواعد العربية المشهورة إن هو إلا مواد تاريخية بقيت في العربية قبل أن يتجه نظامها إلى التوحيد في القواعد النحوية واللغوية . قلت ، وفي هذا فائدة أية فائدة في معرفة الطريق الذي تطورت به هذه اللغة فكان لها نظام خاص في الإفراد والتثنية والجمع في الأسماء والضمائر وغيرهما ، وأن كلاً من هذه المواد له حيز خاص حين يتصل بالفعل أو الضمير مثلاً .

ومن هذه المواد التي وردت في لغة التنزيل عود الضمير على اسمٍ غير مذكور ولكنه يلحظ عقلاً كقوله تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾[2] .

إن في الفعل « بلغت » ضميراً يرجع إلى الروح ، دلت القرائن عليها .

أقول : هذه نماذج من لغة القرآن تقدم ظواهر نحوية جديرة بالدرس والإفادة منها فائدة تاريخية .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٦٢ .

(٢) سورة القيامة : الآية ٢٦ .

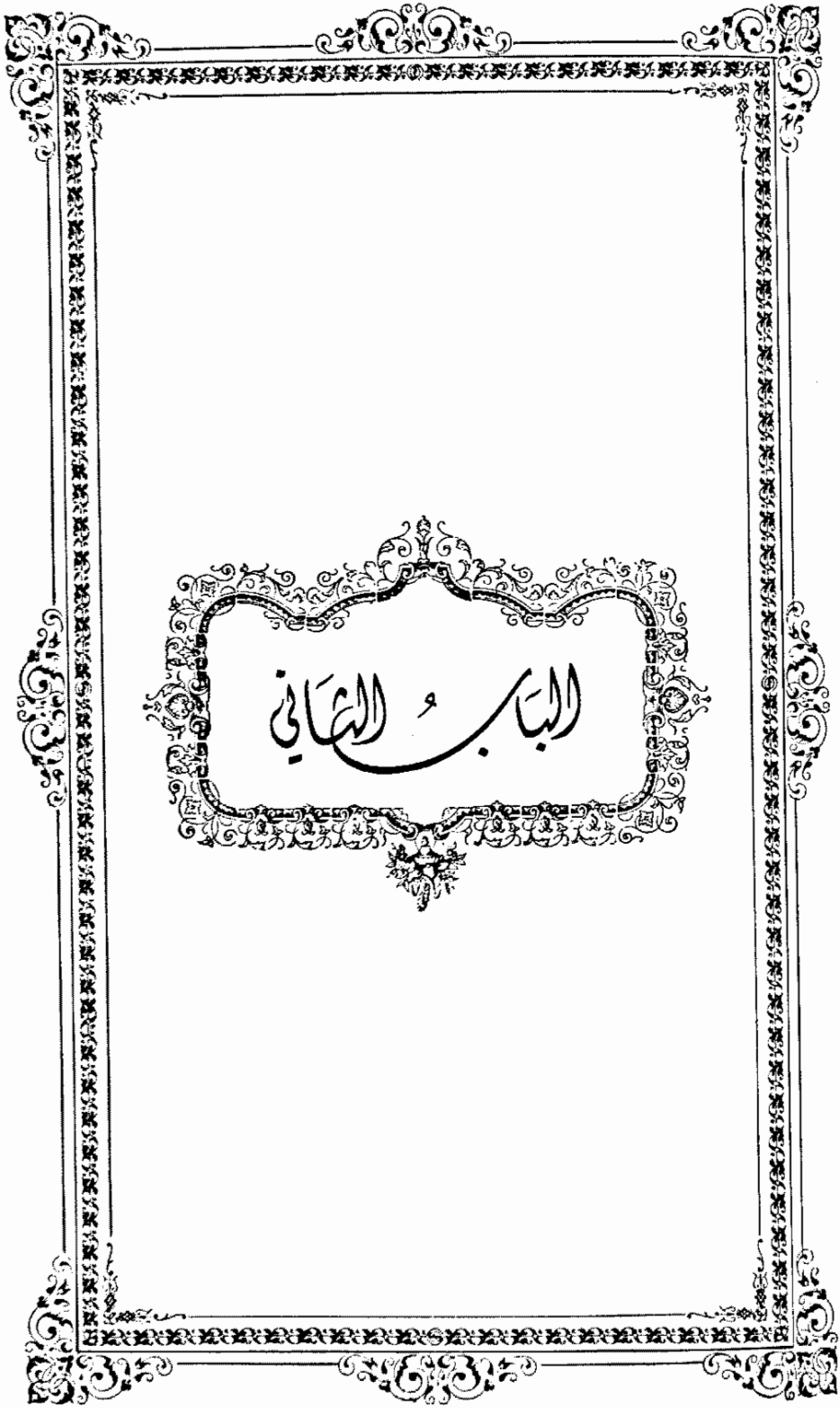

الباب الثاني

الفَصْـلُ الأوّل

في نَظْـمِ القُـرْآن (الكَلِمة وَالجُملة)

ليس عَلَيَّ من حرج أن أستعير كلمة « النظم » مراداً بها التأليف ، في الكلام على كتاب الله ـ جلت عظمته ـ وذلك أن المتقدمين من أهل العلم قد استعملوها ، ألم نعرف أن للجاحظ كتاباً في « نظم القرآن » أشار إليه في كتبه ورسائله غير مرة ؟ ثم ألم يتخذ الإمام عبد القاهر الجرجاني مادة « النظم » في الكلام على الكلمة والجملة في كتاب الله ، في كتابه « دلائل الإعجاز » ؟

والذي يعنيني من النظم الكلمة في القرآن ، ثم أن تندرج الكلمة في بناء الآية ، ثم التئام الآية بنظائرها من الآيات . ولا بد أن نأتي في هذا على « الفواصل » وما يسمى بـ « التناسب » و « المشاكلة » و « المجانسة » . وفي جماع هذا أشتات من العلم الصوتي مما اشتمل عليه كتاب الله .

وسأبدأ الكلام على الكلمة في القرآن فأقول :

إن الكلمة في القرآن فصيحة عالية الفصاحة ، وهذا يعني أنها استوفت ما يجب أن يتوفر فيها لتتصف بهذه الصفة وهي :

١ ـ البناء الحسن وهذا يعني أن لغة القرآن تجنبت الأبنية المعقدة والمتنافرة والشاذة مما جاء من الرباعي والخماسي وما زيد على ذلك .

٢ ـ خلو لغة القرآن من النوادر الغريبة والشاذة . وقد يقال ، فأين نضع كتب « الغريب » ؟ والجواب : أن غريب القرآن لم يكن من الكلمات التي لم تعرفها العرب . وذلك أن جُلّ ما ضمت كتب الغريب استشهد على وجوده في الشعر الجاهلي ، وأن العرب نطقت به في أدبها القديم . وكأن الغريب هو « الحوشي » مما لم يكن متداولاً أو أنه بعيد في البداوة فلا يعرفه إلا قليل منهم .

٣ ـ حسن التأليف في الأصوات وسموا ذلك في أن الكلمة غير متنافرة في الأصوات . وكتب البلاغة والبيان تستشهد على ذلك مثلاً بقول امرىء القيس :

غـدائـرُهُ مستشزِراتٌ إلى العُلَى تَضِلُّ العِقاصُ في مُثَنًّى ومُرسَلِ

وغير هذا .

كما أن لديهم أموراً أخرى يجب أن تُراعى في تخيُّر الكلمة إذا أريد لها أن تتصف بالفصاحة أقول : ليس شيء من هذا نعرفه في كتاب الله .

فإذا حسنت الكلمة في التأليف حسن الكلام . ومن أجل هذا فإن توفر الحسن في الكلمة والجملة القرآنية بلغ حداً عجيباً كان من بعض لوازم « الإعجاز » الذي عرضه له أهل القرآن في مذاهبهم المختلفة في النظر إلى هذه المشكلة اللغوية .

ومن المفيد أن أشير إلى خلو هذه اللغة الرفيعة القرآنية من المشكلات اللغوية التي كانت مادة علم اللغة التاريخية القديمة ، فالكلام على الوقف والابتداء وما يعرض له من تجاوز وخروج على اللغة الفصيحة ، وما يسمى بـ « التقاء الساكنين » في حشو الكلمة الواحدة وفي الكلمتين المتجاورتين ، وبعض ما يعرض من الإبدال في الأصوات ، فيحيل الكلمة إلى شيء غير مقبول ، وما يسمى بـ « مطل الحركات » و «الأبنية الغريبة » نحو « فيعول »

و « فَيعال » و « فِعوال » و « فيعليلة » و « فِعَّول » و « فِعِلّى » و « فَعّول » و « يفعول » و « فاعول » و « فُعَيل » ونحو هذا .

أقول : لقد خلت لغة القرآن من هذه المواد التي صارت الشغل الشاغل لعلماء اللغة . ألا ترى أن قول ابن هرمة يرثي ابنه :

فأنتَ مِنَ الغوائلِ حينَ تَرمي ومن ذمِّ الرجالِ بمنتزاحِ

وأراد بمنتزَح .

أقول أيضاً : إن هذا البيت وشواهد أُخرى جعلت أهل اللغة والنحو منذ عصر الخليل وقبله إلى عصر ابن جنّي مشغولين بهذه العيوب التي كانت من أهم مواد علم اللغة القديم أبنيةً وأصواتاً .

قلت : لقد خلت لغة القرآن من الكلمة الحوشية الغريبة ومما تقارب مخارج أصواتها فيعرض لها من الثقل والقبح ما لا يستطيع المعرب أن يحتمله لإخراجها . ومن أجل ذلك تجد اللغة الأنيقة المحببة المختارة . فإذا قرأت قوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْمَاءُ ، وَقُضِيَ الأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1] .

أدركت سمو هذا البناء الذي أُحكمت صناعته فأصاب الغرض في تصوير هذه المعاني المتلاحقة .

ومثل هذا كثير جداً في آي القرآن الكريم وقد يصار إلى الحفاظ على الحسن في التركيب والبناء إلى صنعة خاصة بزيادة صوت خاص كما في قوله تعالى :

---

(١) سورة هود : الآية ٤٤ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَأُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾[1] .

ثم قال ـ عزّت كلمته :ـ : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾[2] .

إن إضافة الهاء إلى هذه الفواصل في هذه الآيات أكسبها من حسن الصنعة ولطف التركيب قدراً كبيراً لا يخفى على أهل البيان الرفيع .

وقال ابن الأثير في « المثل السائر » في التعليق على كلمته « ضيزَى » من قوله تعالى ﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[3] : إن لفظة « ضيزى » في موضعها من الآية لا يسدّ غيرها مسدها . ألا ترى ان السورة كلها مسجوعة على حرف الألف ، فقال تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى ﴾ وكذلك إلى آخر السورة ، فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد ، وما كان يزعمه الكفار قال : ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ، تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يَسُدُّ مسدّها في مكانها[4] .

ويحسن بنا أن نتوسع شيئاً في هذه الآيات المسجوعة فنعرض لهذا الفن الذي يجري على السجع والفواصل .

وكأن غير واحد من المتقدمين عدل عن كلمة السجع في الكلام على القرآن وصرف الكلام إلى « الفواصل » . على أن الفواصل لم تنل كثيراً من عناية أبي عبيدة في « مجاز القرآن » ولم يفرد لها مكاناً خاصاً ، ولكنه يعرض

---

(١) سورة الحاقة : الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة الحاقّة : الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .
(٣) سورة النجم : الآية ٢٢ .
(٤) المثل السائر ١/١٥٦ .

للمسألة حين يلحظ أن فيها عدولاً عن مألوف الاستعمال اللغوي فيتأوله بقوله : « أن العرب تفعل ذلك في كلامها » .

والفرَّاء في « معاني القرآن » قد حدد رأيه تحديداً صريحاً من الفواصل في شرحه لمعاني القرآن وترجيحه بين القراءات ، وهو يرى أن أسلوب القرآن يرعى الفواصل تحرياً لجمال النظم فالتقديم والتأخير مما يقتضيه نظام الفواصل ، وإيثار لفظ على آخر في معناه ، والعدول عن بناء إلى آخر،كل ذلك مما توجبه الفواصل أو رؤ وس الآيات[1] .

وكأن « الفواصل » لم تكن من الكلمات المعروفة في القرن الثالث الهجري فلم ترِد في « معاني القرآن » للفراء إلا باسم « رؤوس الآيات » ، ولعلها كانت معروفة فاجتنبها كما اجتنب كلمة السجع .

وكأن المتقدمين في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد اجتنبوا استعمال « السجع » في الكلام على القرآن وذلك لأن النبي ﷺ كان قد نهى عن السجع حين سمع من جاء يسأله عن دية الجنين قائلاً : كيف ندي من لا شَرِبَ ولا أكَلَ ، ولا صاح فاستَهَل ، أليس دمه قد يُطَلّ ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أسَجعاً كَسَجع الكهان ؟

إنه - ﷺ - نهى عن السجع الذي أشبه سجع الكهان ولم ينه عن استعماله استعمالاً مطلقاً ، وكيف ينهى وقد جاء في كلامه الكثير من السجع .

أقول : لعل من نفى السجع في القرآن وهم جمهور كثير وفيهم الأشاعرة متأثرون بالسجع المنهي عنه ، أو أنه يشعر بالشعر الذي استبعد من القرآن .

---

(١) معاني القرآن ، توجيه الفواصل في سور : الرحمن ، والضحى ، والفجر ، والليل ؛ في الجزء الأول .

وقد أفرد الباقلاّني في كتابه « إعجاز القرآن »[1] فصلاً لنفي السجع عن القرآن فرَّق فيه بين السجع المنهي عنه والفواصل في القرآن .

ونَفَى الرماني أن يكون سجع في القرآن ، وأن السجع غير الفواصل . وأن « الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع ، توجب إفهام » ، ثم قال :

والفواصل بلاغة والأَسجاع عيب ، وضرب لذلك شواهد كثيرة من الآيات الكريمة ذات الفواصل التي ميّز فيها وجهين :

أحدهما على الحروف المتجانسة ، كآيات : ﴿ طَهَ ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ . ﴿ وَالْطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ .

والآخر على الحروف المتقاربة كالميم والنون في مثل :

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

والدال والباء في مثل :

﴿ قَ ، وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيءٌ عَجِيبٌ ، أَئِذَا مِتنا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ .

وهكذا ينظر الرماني إلى المعنى ، وإن كان نظره يتجه إلى الجرس والإيقاع في أن له مكاناً في حسن البناء والنظم .

ويختم الرماني فيقول : والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع وتحسينها الكلام بالتشاكل وإبداؤها في الآي بالنظائر[2] .

وقد عنيَ غير هؤلاء بالسجع في القرآن ولم ينفوا وجوده بهذا الاسم

---

(١) إعجاز القرآن ، ص ٨٩ ـ ١٠٠ .

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، ص ٩٧ (دار المعارف ، ذخائر العرب) .

ومنهم عبد القاهر الجرجاني في « دلائل الإعجاز » .

وإلى مثل هذا ذهب ابن سنان الخفاجي في « سر الفصاحة » وابن الأثير في « المثل السائر » وفرَّق هؤلاء بين السجع البليغ الذي يرمي إلى إصابة المعنى وضروب أخرى من السجع الغث البارد الذي يفرَّط فيه بالمعاني .

وإذا كان نفر من القدامى قد اجتنبوا لفظة السجع وميَّزوا بينها وبين الفواصل القرآنية ، وذهبوا إلى نفي وجود السجع في كتاب الله ، نجد نفراً آخر لا يرى هذا الرأي وعنده أن السجع والفواصل شيء واحد . وقد نبّه هؤلاء أن ليس من ضير أن يتكلم على السجع القرآني ، ومن هنا نجد أن صلة نشأت بين مادة علم القوافي ومادة علم القراءات في أن لكلا الطرفين مصطلحاً مشتركاً .

إن الذين درسوا الفواصل استعاروا الصفات التي تتصف بها مثل : الحذو والإشباع والتوجيه وغيرها ، وهذه نفسها من مصطلح علم القوافي .

ومثل هذا ما يحدث من اتفاق القوافي وفواصل الآي مع السياق فتبدو مشكلات تتصل بهذا الفن كالتصدير والتوشيح والإيغال وغيرها ، وهذه من المصطلح المشترك .

أقول : إنّ العلاقة بين هذه الفنون القديمة ترقى إلى اهتمام اللغويين وأصحاب القرآن بالشعر القديم الذي اتخذوه مادة استشهاد لهم لإثبات صحة قراءةٍ أو بيان وجهٍ من وجوه اللغة القرآنية .

الفصل الثاني

مع الدّلالة والتطوّر

سأعرض في هذا الفصل لجملة من المواد استعملت في لغة القرآن استعمالاً خاصاً ومن هذه أفعال وأدوات كحروف الجر وغيرها . وقد فسر أهل اللغة هذه الاستعمالات الخاصة تفسيراً خاصاً أسموه « التضمين »[1] .

والتضمين : مصطلح يتصل أيضاً بالبلاغة والعروض ، وقد بسطت هذا الموضوع في مكان آخر ، أما التضمين الذي نأتي إليه في هذا الفصل فإن مواده تتصل باللغة والنحو . وفي الحق إن هذا القسم غير مستقل عن التضمين في البلاغة والعروض من حيث بعده عن البلاغة واتصاله بالمباحث اللغوية والنحوية ، فقد امتدت إليه يد البلاغة فناقشت أصوله في ضوء العقلية البلاغية التي شاعت في المنهج اللغوي ، ومن المعلوم أن المنهج البلاغي يستدعي البحث في النصوص الأدبية للوصول إلى الصور البيانية والقيم الجمالية .

ومن المعلوم أيضاً أن الجانب اللغوي النحوي في موضوع التضمين قد تعرّض لسؤالات بلاغية ، كالاستفسار عن « ماهيته » ، أحقيقة هو أم مجاز ؟ وهل القيد فيه حال منتزعة من المنقول منه ؟ وما يشبه ذلك من المسائل البلاغية .

---

(١) أنظر مادة « ضمن » في « لسان العرب » و« تاج العروس » .

ولكي نعطي فكرة واضحة عن هذا القسم ، رأينا أن نعرض لمواضع التضمين في الاستعمال لنخلص إلى تحديده وضبطه وتعريفه ، ثم نقرر أحقيقة هو أم مجاز ، رغبة منا في أن نصل بعد هذا إلى أنه قياسي يجوز أن يقاس عليه مما اشتهر استعماله ، أو أنه سماعي لا ينقاس عليه .

التضمين في الاستعمال :

لم يسلم منهج الباحثين في علوم العربية من قيود المنطق وآثار الفلسفة ، ذلك أن العقلية الفلسفية قد غزت سائر العلوم ، فقد استهوى منطق أرسطو وفلسفة الفلاسفة الآخرين الباحثين في الثقافة الإسلامية ، فتأثروا بهذا في سائر علومهم . وكان من نتائج ذلك أن تأثر البحث اللغوي والنحوي بهذا المنهج الدخيل على النحو واللغة ، وكان تأثيره في النحو واللغة سلبياً ، فقد أحال كثيراً من الأبواب اللغوية والنحوية إلى مادة جامدة بعيدة عن الحياة ، أو قل بعيدة عن العلم اللغوي .

ومن أجل هذا ظهرت في علوم العربية قواعد وأحكام لم تكن وليدة الاستقراء الشامل الواسع للغة ، كقولهم مثلاً : إن الفعل « كذا » يأتي لازماً ولا يأتي متعدياً ، وإن الحرف « كذا » يأتي لمعنى ولا يأتي لغيره ، وهكذا فإذا فطنوا أن هذا الفعل وذلك الحرف ، قد أتيا على غير ما ذكروا ، فزعوا إلى طريقتهم ومنهجهم يؤوّلون ويعلّلون ، كأن يقدّرون محذوفاً ، أو يحذفون ما هو مذكور . وليس هذا مجال عرض المشكلات اللغوية والنحوية التي أفسدها المنهج المنطقي ، فهي كثيرة يعرفها المعنيون بالموضوع .

إن مبحث التضمين الذي ندرسه يظهر اضطراب علماء العربية القائلين به ، فهناك نصوص تنمُّ عما وضعوه من أحكام وقيود ، لم يجدوا إلى حلها غير القول بـ « التضمين » ، ولا بد للباحث في علم الدلالة Sémanti-que بغية الإفادة منه في العربية ، أن يعاني صعوبة البحث إذا ما أراد أن

يخلص للمنهج السليم ، ولا سيما في عصوره الحديثة .

إن أول حيّز للتضمين هو أدوات المعاني أو حروف الصفات على حد تعبير ابن قتيبة[1] .

١ ـ إن الحرف « في » تضمن معنى « على » كقوله تعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[2] ، أي على جذوع النخل ، قال الشاعر :

وُهم صَلبُوا العبديَّ في جِذْعِ نخلةٍ فلا عطستْ شَيْبانُ إلا بأجذعا

وقال عنترة :

بَطَلٌ كأنّ ثيابَه في سَرْحةٍ يُحذَى نِعالَ السِّبْتِ ليسَ بِتوأَمِ

أي على سرحة من طوله .

٢ ـ إن الحرف « إلى » تضمن معنى « في » كقول النابغة :

فَلاَ تتركَنِّي بالوعيدِ كأَنَّني إلى الناس مَطْليٌّ به القارُ أجرَبُ

يريد في الناس .

وقال طَرَفَةُ بن العبد :

وإن يَلتقِ الحَيُّ الجميعُ تُلاقِني إلى ذروة البيتِ الكريمِ المصَمَّدِ

أي في ذِروة البيت الكريم الذي يُصمَدُ إليه ويقصد .

٣ ـ إنّ الحرف « على » تضمن معنى « عن » كقول القحيف العقيليّ :

إذا رَضِيَتْ عَليَّ بنو قُشَيرٍ لعَمرُ اللَّهِ أعجبَني رِضَاها

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ، ص ٤٢٦ ، وأدب الكاتب ص ٥٠٢ .

(٢) سورة طه : الآية ٧١ .

أي رضيت عنه .

٤ ـ إنّ حرف « الباء » تضمن معنى « عن » كقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾[١] ، أي عنه .

قال علقمة بن عبدة :

فَإِنْ تسألوني بالنساءِ فإنني بصيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ

وقال ابن أحمر :

تُسائلُ بابنِ أحمرَ من رآهُ أعارتْ عينُهُ أمْ لم تُعارا

٥ ـ إنّ الحرف « اللام » تضمن معنى « على » كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوْا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾[٢] ، أي لا تجهروا عليه بالقول ، والعرب تقول : سقط فلان لفيه ، أي على فيه .

قال الأشعث بن قيس :

تناولْتُ بالرمحِ الطويلِ ثيابَهُ فخرَّ صَريعاً لليدَينِ وللفمِ

أي على اليدين والفم .

وقال الطِّرمَّاح بن حكيم :

كأنَّ مُخَوَّاها على ثَفِناتها معرَّسُ خِمسٍ وقَّعَت للجناجنِ

٦ ـ إن الحرف « إلى » تضمن معنى « مع » كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوْا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾[٣] ، أي مع أموالكم .

---

(١) سورة الفرقان : الآية ٥٩ .

(٢) سورة الحجرات : الآية ٢ .

(٣) سورة النساء : الآية ٢ .

ثم إن الفعل « تأكلوا » قد تضمن معنى « تضيفوا » .

ومن تضمين هذا الحرف « إلى » معنى « مع » قوله تعالى : ﴿ مَنْ أَنْصَارِيْ إِلَى اللَّهِ ﴾[1] ، أي مع الله .

والعرب تقول : « الذَود إلى الذود إبل » أي مع الذود .

قال ابن مفرِّغ :

شَـدَخَتْ غُـرَّةَ السَـوَابقِ مِنْهُم في وُجـوهٍ إلى اللِّحامِ الجِعَـادِ

أي مع اللحام الجعاد .

٧ ـ إن حرف « اللام » تضمن معنى « إلى » كقوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾[2] أي أوحى إليها .

أقول : ألم يكن الباعث إلى العدول عن الحرف « إلى »إلى « اللام » ما يقتضيه التناسب والفاصلة حيث أن الآيات كلها انتهت تقريباً باللام فاصلة (كالروي في البيت) وهذه اللام مفتوحة ، ولا يتأتى هذا التناسب بالحرف « إلى » !

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ الحَمْدُ للَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾[4] ، أي إلى هذا ، كما قال تعالى أيضاً : ﴿ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[5] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٥٢ .
(٢) سورة الزلزلة : الآية ٥ .
(٣) سورة الزلزلة : الآيات ١ ـ ٥ .
(٤) سورة الأعراف : الآية ٤٣ .
(٥) سورة النحل : الآية ١٢١ .

٨ ـ إن الحرف « على » تضمن معنى « من » ، كقوله تعالى : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾[١] ، أي من الناس .

وقال صخر الغي :

مَتَى مـا تُنْكِروهـا تَعرِفُـوهـا عَـلَى أَقـطارِهـا عَـلَقٌ نَـفِـثُ

أي من أقطارها .

٩ ـ إن الحرف « من » تضمن معنى « الباء » ، كقوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[٢] أي بأمر الله .

وقال تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ ﴾[٣]، أي بأمره .

١٠ ـ إن حرف « الباء » تضمن معنى « من » كقول أبي ذؤيب الهُذَليّ :

شَـرِبْنَ بمـاءِ البحـرِ ثُم تـرفَّعَتْ متى لُجَـجٍ خُضْـرٍ لهُنَّ نَئِـجُ

وقال تعالى : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾[٤] ، أي منها .

ومن المفيد أن أشيرَ إلى أنهم قالوا : إنَّ « متى » تضمنت معنى « من » في بيت أبي ذؤيب الهُذَليّ .

اجتزىء بهذه الشواهد فأتبيّن فيها ، أن النحويين وعلماء اللغة في حيرة واضطراب ، فهم يرون حرفاً قد استعمل في مكان آخر ، ولا بد لهم أن يتخلصوا من هذه الحيرة وهذا الاضطراب بوسيلة من وسائلهم .

---

(١) سورة المطففين : الآية ٢ .
(٢) سورة الرعد : الآية ١١ .
(٣) سورة غافر : الآية ١٥ .
(٤) سورة المطففين : الآية ٢٨ .

والبصريون يمنعون إنابة بعض الحروف الجارة عن بعض قياساً ، كما لا تنوب حروف الجزم والنصب بعضها عن بعض ، وما أوهم ذلك محمول على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف ، أو على شذوذ النيابة .

والكوفيون يجوّزون نيابة بعضها عن بعض قياساً[1] . وقد رجّح ابن هشام مذهبهم فقال : « ومذهبهم أقلّ تعسفاً »[2] .

لقد اختلف البصريون والكوفيون في هذا الباب اختلافاً كبيراً ، واختلافهم يشير إلى أن هؤلاء جميعاً لم يستقروا كلام العرب استقراءً وافياً ليسجلوا هذه الاستعمالات ، وليقيدوها بقائليها ، وبالزمن الذي قيلت فيه ، مهتمين بموضوع اللغات الخاصة التي أجازت استعمالاً دون آخر .

قال الأنباري في « الإنصاف » : « ذهب الكوفيون إلى أن « من » الجارة يجوز استعمالها في الزمان والمكان » وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز استعمالها في الزمان ، أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا :

الدليل على أنه يجوز استعمال « من » في الزمان أنه قد جاء ذلك في كتاب الله تعالى وكلام العرب . قال الله تعالى : ﴿ **لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ** ﴾[3] ، وقال زهير :

لِمَنِ الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ من حِجَجٍ ومِنْ دَهرِ

فدلَّ على أنه جائز .

وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : « أجمعنا على أن « من » في المكان نظير « مذ » في الزمان ، لأن « مِن » وُضعت لتدلّ على ابتداء الغاية

---

(١) المخزومي : مدرسة الكوفة ، ص ٣٢٦ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) سورة التوبة : الآية ١٠٨ .

في المكان ، كما أن « مذ » قد وضعت لتدلّ على ابتداء الغاية في الزمان ؛ ألا ترى أنك تقول : ما رأيته مذ يوم الجمعة ، فيكون المعنى : أن ابتداء الوقت الذي انقطعت فيه الرؤية يوم الجمعة ، كما تقول : ما سرت من بغداد ، فيكون المعنى : ما ابتدأت بالسير من هذا المكان . فكما لا يجوز أن تقول : ما رأيته من يوم الجمعة ، لا يجوز أن تقول : ما سرت مذ بغداد »[1] .

وهذا الخلاف والجدل يظهران أن الكوفيين أَسَدُّ رأياً وأصوَب منهجاً ، ذلك أنهم اعتمدوا استعمالات بنوا عليها رأيهم ، وهذا وجه علمي صائب .

أما البصريون فإنهم قد تمسَّكوا بجدل ذي أسلوب منطقي ، واعتمدوا استعمالات اصطنعوها هم أنفسهم ، ولم يعتمدوا على شواهد استقروها من النصوص الموثّقة .

وقد استمر الكوفيون على منهجهم في إنابة كلمة عن أخرى ، فالفرَّاء قد أجاز أن تقع « ليت » في موضع « تمنّيت » ، و بهذا علل كون « ليت » أقوى أدوات النصب كما يرى هو . وقد أجاز أن ينصب بها المسند إليه والمسْنَد مستشهداً بقول الشاعر :

يا ليت أيامَ الصِّبا رواجعا[2]

لأنها شربت معنى « تمنّيت » فإذا قيل : ليت زيداً قائماً ، كان معناه : تمنيت قيام زيد ، وقد ورد من هذا قول الشاعر :

إذا اسوَدَّ جُنْحُ الليلِ فَلْتأْتِ وَلْتكنْ خُطَاكَ خِفَافاً إنَّ حُرَّاسَنا أُسْداً

وقد جاء في الحديث : « إن قعر جهنَّم سبعين خريفاً » ، وقولهم : إن

---

(١) الأنباري : الإنصاف ، ص ٢٢٨ .

(٢) معاني القرآن ، الورقة ٤٥ ، عن مدرسة الكوفة . وانظر السيوطي ، الهمع ١/١٣٤ .

زيداً أخانا[1] . وقد أنابوا فعلاً عن فعل آخر على سبيل التضمين ، وهو موضوع يكشف أن علماء العربية لم يتعقبوا الاستعمالات ويقيّدوها كما أشرنا ، وكان من ذلك أنهم احتالوا على كل ما وجدوه خارجاً عما قرروه من قواعد وضوابط فقالوا بالتضمين مثلاً .

قال الزمخشري : « ومن شأنهم أن يضمنوا الفعل معنى فعل آخر فيجروه مجراه ويستعملوه استعماله ، مع إرادة معنى المتضمن . قال: والغرض في التضمين إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى ، ألا ترى كيف رجع معنى ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾[2] إلى قولك : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين إلى غيرهم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ ﴾[3] ، أي لا تضمّوها إليها آكلين .

وأنت ترى أن حقيقة التضمين عند الزمخشري قائمة على أساس ضعيف ، إذ كيف يجوز أن يتضمن الفعل في جملة واحدة معنيين ، ولم يفت الأقدمين هذا الاضطراب في الدلالة ، فقد ذكر الشيخ سعد الدين التفتازاني في حاشية الكشّاف :

« . . . فإنْ قيل الفعل المذكور إن كان مستعملاً في معناه الحقيقي فلا دلالة على الفعل الآخر ، وإن كان في معنى الفعل الآخر ، فلا دلالة على معناه الحقيقي ، وإن كان فيهما جميعاً لزم الجمع بين الحقيقة والمجاز » .

والسيوطي في الأشباه والنظائر يورد أقوالاً متضاربة تظهر بوضوح مدى حيرة الأقدمين أزاء الاستعمالات والأساليب ، ومن أجل ذلك لم يتفقوا على

---

(١) السيوطي : الهمع ١/١٣٤ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٢٨ .
(٣) سورة النساء : الآية ٢ .

حقيقة التضمين وطريقته ، فقد ذكر ابن جنّي في « الخصائص » : « واعلم أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر ، وكان أحدهما يتعدى بحرف ، والآخر بحرف آخر ، فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر ، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد على ما هو في معناه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ ﴾[1] ، وأنت لا تقول : رَفَثْتُ إلى المرأة ، وإنما تقول : رَفَثْتُ بها أو معها ، لكنه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء ، وكنت تعدي أفضيت بـ « إلى » كقولك : أفضيت إلى المرأة ، جئت بالحرف « إلى » مع الرفث إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه »[2] .

وقد عرض مجمع اللغة العربية لموضوع التضمين ولم يدرس الأعضاء هذه المسألة دراسة علمية تتصل بالأسلوب ، بل ذهب إلى القول أن أفعالاً كثيرة تضمنت معاني أفعال أُخرى[3] .

وتزداد طائفة الأفعال المتضمنة لمعان أخرى إذا ما استقرينا كتب الأدب بحثاً عن هذه الأفعال .

ذكر سعد الدين التفتازاني : أن الظهور بمعنى الزوال كما في قول الحماسي : وَذلكَ عارٌ يا ٱبنَ رَيْطَةَ ظاهِرُ

وقول أبي ذؤيب : وتلكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا .

أي زائل[4] .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٨٧ .
(٢) السيوطي : الأشباه والنظائر ١/١٠٤ .
(٣) دورة الانعقاد الأول ٢٠٦ .
(٤) التفتازاني : شروح التلخيص ٤/٩٧ .

ولم يقتصر الأمر على تضمين فعل بمعنى فعل آخر ، وإنما تجاوزه إلى صَيْرورةِ فعل لازم فعلاً متعدياً أو بالعكس .

ومن ذلك ما جاء في مجلة مجمع اللغة العربية : « وجاز تضمين اللازم المتعدّي مثل : فإنه سَفَّهَ نَفسه أي أهلكها » .

وذهب ابن هشام إلى أبعد من هذا ، إذ قال : « وزعم قوم من المتأخرين منهم خطاب الماردِيني أنه يجوز تضمين الفعل المتعدي لواحد معنى « صيّر » ويكون من باب « ظنّ » ، فأجاز : « حفرت وسط الدار بئراً » أي صيرت . وقد أجاز : « بنيت الدار مسجداً » ، و« قطعت الثوب قميصاً » ، و« قطعت الجلد نعلاً » ، وجعل منه قول أبي الطيب :

فَمَضَتْ وقد صَبَغَ الحياءُ بياضَها لَوني كَمَا صبغَ اللُّجَيْنُ العَسْجَدا[1]

وأنت ترى مما عرضنا أن مواضع التضمين واسعة ، وهذه السعة لا تدل على سعة البحث في الموضوع ، أو أنهم تعمقوا في المشكلة فعرضوا لوجوهها جميعاً ، وإنما تدل على حيرتهم في البحث عن المعاني والأساليب ، وربما كشف عن جمودهم ووقوفهم عند استعمالات لا يتجاوزونها إلى غيرها ، وما خلا هذه الاستعمالات ، فهو بين أن يكون محمولاً على الخروج والخطأ والتجاوز ، وبين أنه داخل في باب التضمين إن لم يجدوا وجهاً إلى تخطئته وخروجه كأن يكون من كلام الله كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[2] ، فقد ذكر المفسرون أن المعنى : أفلم يَعلم ، وقد قالوا : إنها لغة نخع وهوازن ، وقال سحيم بن وثيل اليربوعي :

---

(١) السيوطي : الأشباه والنظائر ١٠٣/١ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٣١ .

أقولُ لهم بالشِّعْبِ إِذْ يأْسرونَني أَلَمْ تيأسوا أني ابنُ فارسِ زَهدَمِ

وقد روي : ألم تعلموا . ومَنْ يدري فلعل الأصل : أَلَمْ تعلموا ؟

وقد قرأ ابن عباس : ﴿ أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ الَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ ، وقد أنكر الفرَّاء كون « ييأس » بمعنى يعلم .

وقد تبين أن التضمين هو أن تستعمل مادةً فعلاً كان أو اسماً أو أداةً محل غيره مع قرينة ، تحولية أو حالية ، تشير إلى المعنى الذي استُعْمِل ، وهذا الحدّ في التضمين يثير الاستفسار عن المادة المستعملة من حيث الحقيقة والخروج عنها إلى المجاز أو الكناية أو الاستعارة .

لقد اختلف الأقدمون في حقيقة التضمين من حيث كونه حقيقة ، أو أنه خروج عن الحقيقة إلى غيرها توسعاً أو مجازاً ، ونستطيع أن نخلص إلى مذاهب ثلاثة في الموضوع :

المذهب الأول

يقرر أن المادة المتضمنة قد استخدمت على الوجه الحقيقي ، مع قطع الصلة بينها وبين الأصل .

والمذهب الثاني

يقرر أن المادة قد استخدمت على الوجه المجازي مع القرينة الدالة .

والمذهب الثالث

يجمع بين المذهبين فيقرر أن المادة مستخدمة على الحقيقة والمجاز في آن واحد .

أما المحدثون الذين أقروا التضمين ، فقد كانوا يريدون الأخذ به للحاجة إليه ، ولأن متطلبات العصر تستدعي أن تسعف العربية بمادة جديدة

حتى تساير الحياة المعاصرة ومتطلباتها المعقدة الكثيرة . وقد فعل هذا مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقال بقياسية التضمين .

وتظهر هنا مسألة مهمة تتعلق بهذه « القياسية » التي يراد منها أن تستخدم استخداماً فنياً . (Technique) في الحياة العامة ، وما جدَّ فيها من ضروب العلم التجريبي والنظري .

وإذا جاز هذا ، جاز أن نتوسع في الموضوع ، وندخل هذا في اللغة الأدبية والأسلوب الفني الذي يعتمد على توليد الصور الأدبية التي تستمد عناصرها من الخيال الذاتي للأديب ، ومما توحيه إليه بيئته ومجتمعه .

وينجم عن هذا أن لا بد من أن تؤ رَّخَ الألفاظ وتقيد بعصورها وبقائليها حاسبين للأقاليم والمجتمعات الخاصة حسابها في الاستعمالات ، وما شاع بينها من فنون القول ، وبهذا تفيد المعجمية العربية فائدة جليلة ، فيعاد بناء المعجمات المطولة على أساس جديد ، مراعاة للظروف التاريخية وتطورها ، وانعكاس هذه الظروف المتطورة في المادة اللغوية ، ومن هنا تأتي ضرورة تصنيف المعجم التاريخي .

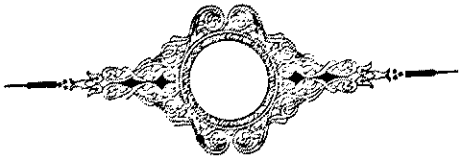

الفصل الثالث

في الدلالة أيضاً

سأعرض في هذا الفصل لجملة مواد من القرآن أخذتها لخصوصيةٍ في استعمالها على نحوٍ لم يهدنا الاستقراء إلى ضبطه في النصوص الأخرى .

وليست هذه الألفاظ التي عِدَّتُها دون العشرة هي كل ما في كتاب الله من هذه البدائع ذوات الأسرار اللطيفة العالية التي لا يدركها القارىء بيسر . إنّ هذه الألفاظ التي أشرنا إلى صفاتها الخاصة كثيرة في كتاب الله ، ولكني اجتزأت من هذا المَعين الثرّ بشيء اتخذه نماذج لهذه اللغة القويمة التي أفرغت فيها الذات الإلهية شيئاً من عظمتها وقدرتها الخارقة . وها هي على النحو الآتي :

١ ـ الرؤيا والحلم :

أقول عرضت الأستاذة الدكتورة إلى هاتين المادتين في كتابها[1] « الإعجاز البياني للقرآن » فاستقرت الآيات التي وردت فيها لفظة « الأحلام » وهي ثلاث آيات . يشهد سياقها بأنها الأضغاث المشوّشة والهواجس المختلطة . وتأتي في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع ، دلالة على الخلط والتشويش لا يتميز فيه حلم عن آخر .

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

وأنا اجتزىء بآية من هذه الآيات الثلاث وهي قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ، فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾[1] .

أما الرؤيا فجاءت في القرآن سبع مرّات ، كلها في « الرؤيا » الصادقة ، وهو لا يستعملها إلا بصيغة المفرد ، دلالة على التمييز والوضوح والصفاء .

ومن بين المرات السبع ، جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء ، فهي من صدق الإلهام القريب من الوحي . وأجتزىء من هذه الآيات السبع بواحدة هي رؤيا إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[2] .

أقول : إن هذا الذي جاء في القرآن في مادة « الرؤيا » ودلالتها على الصدق في الآيات السبع ـ في حين أن « الأحلام » لم ترد إلا في الأضغاث المشوشة المختلطة الكاذبة ، مما اهتدت إليه الأستاذة بنت الشاطىء ـ خصوصية معنوية اختصت بها لغة التنزيل العزيز يحسن بنا أن نقف عندها لنرى أن العناية الآلهية أفرغت في هذا الكتاب عربية قويمة عالية تتصف بالأصالة والحسن .

٢ ـ آنس :

وهذه كلمة أخرى أقتبسها من « الكتاب »[3] نفسه .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٥ .

(٢) سورة الصّافّات : الآيات ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٣) الإعجاز البياني للقرآن : ص ٢٠٠ .

جاء في قوله تعالى : ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾(١) .

وقد ورد هذا الفعل في خمس آيات أخرى موزعة في سُوَرِ القرآن الكريم .

وفي معجمات العربية أن : آنَس الشيءَ أبصره ، والصوتَ سمعه ، واستأنس : إستأذن .

تقول الأستاذة بنت الشاطىء :

نستقري الاستعمال القرآني ، فيعطينا حِسَّ العربية المرهف ، لا تقول « آنسُ » في الشيء تبصره أو تسمعه دون أن تجد فيه أنساً . فإذا قال العربي الأصيل : آنَسْتُ ، فقد رأى أو سمع ما يؤنسه .

وليس الإيناس في الآيات الخمس مجرد إبصار لظواهر الرشد المادية الحسيّة في سن البلوغ ، ولكنه الطمأنينة المؤنسة بالابتلاء والامتحان ، إلى أنهم قد رشدوا حقاً .

وكذلك « الاستئناس » في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾(٢) .

وليس الاستئناس مجرد استئذان كما وَهِمَ الذين فسروه بذلك ، وإنما هو حِسّ الإيناس لأهل البيت قبل دخوله .

أقول : وهذا الذي اهتدت إليه بنت الشاطىء من بديع لغة القرآن في

---

(١) سورة طه : الآية ١٠ .

(٢) سورة النور : الآية ٢٧ .

إفراغ الخصوصية المعنوية . وأريد أن أضيف شيئاً يتصل بهذه المادة الغنية فأقول :

إن « الأُنس » مصدر معروف ، ومنه جاء الفعل « آنس » كما أشرنا وأشارت الباحثة الفاضلة . غير أن أصل « الأُنس » في العربية وفي غيرها من اللغات التي تتصل بها بأرومة النسب ، هو « الإِنْس » أو « الإنسان » أي الرجل أو المخلوق الذي يتصل بغيره من الأناسي . ومن « الإِنس » أو « الإنسان » جاء المصدر وهو اسم معنى ثم توزع في هذه الخصوصيات الدلالية . ومثل هذا أو شيء منه حصل في تلك اللغات التي أشرنا إليها .

٣ ـ بشر :

وردت كلمة « بشر » في لغة التنزيل سبعاً وثلاثين مرةً في آيات مختلفات . وقد وقفت على هذه الآيات فوجدت « البشر » فيها هو المخلوق الضعيف أزاء الخالق القوي الكبير :

﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾[1] .

ثم إن « البشر » متساوون في أنهم ضعاف أمام الخالق ، وأنهم هم والأنبياء سواء من حيث أنهم جميعاً خلق الله ، سوى أن الأنبياء والرسل قد أُوحيَ إليهم فكلفوا ببيِّنات ورسالات . قال تعالى :

﴿ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ﴾[2] .

قلت : إن النبي صاحب بيِّنة أو رسالة وإنه ممن اصطفاه الله لأمر من الأمور ـ جلت عظمته ـ ، وقد أدرك الناس هذه الحقيقة .

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٨ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٣٣ .

قال تعالى :

﴿ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾(١) .

وقال تعالى أيضاً :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾(٢) .

فالرسول والنبي من البشر خُصَّ بالوحي والرسالة والبيِّنة . وقد فهم الخلق أن الأنبياء منهم : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللهُ ﴾(٣) .

إن هذا « البشر » من هذه الأرض ، خُلق منها ، وعليها دَرَج ، وإليها يعود :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾(٤) .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ ﴾(٥) .

أقول : وفي هذا القدر من الآيات الكريمة كفاية أخلص منها لأقرر أن « البشر » في « القرآن » من الكلم القرآني فلم أجده في الشعر الجاهلي مما بين أيدينا من نصوصه الوافرة .

ثم إني أحسّ أن « البشر » يعني في أول إطلاقه « الهالك أو الفاني »

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٥٤ .
(٢) سورة الكهف : الآية ١١٠ .
(٣) سورة التغابن : الآية ٦ .
(٤) سورة الروم : الآية ٢٠ .
(٥) سورة الحجر : الآية ٢٨ .

الذي لم يرزق البقاء والخلود بالنظر إلى الذات الإلهية العلية الباقية الخالدة .

ويحسن بي أن أرجع إلى أصل هذه المادة فأجد « البَشَرة » بفتحتين وهي أعلى جلدة الرأس والوجه والجسد من الإنسان وهي التي عليها الشعر ، وهذا يعني أنها ظاهر الجلد .

إن هذه المادة التي تصرفت بها العربية فجاء الفعل « بَشَّر » أي انطلقت وانبسطت بشرته إعراباً عن الارتياح ومنها البشارة والتباشير وبَشَّرَتْ الشجرة وغيرها كثير . ألا ترى أن هذه المادة تعني أن « البشرة » شيء فانٍ وأنه لا بد من هرم فعجز فموت ، ومن هنا سمي بها المخلوق الفاني أي الإنسان فكان « بشراً » أي هالكاً وفانياً .

وأكتفي بهذا القدر من النظر في هذه المادة القرآنية التي أعانني كلام الله ـ جلت عظمته ـ على فهمها وإدراكها ، عصمني الله من الخطأ والسهو .

٤ ـ بصر وسمع :

استعملت كلمة « البَصَر » مصدراً ثماني مرات في ثماني آيات منها :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرَ ﴾(١) .

وكلها بصيغة المفرد .

ولكننا حيثما وجدنا « البَصَر » مع « السمع » في آيات أخرى جُمِعَ « البَصَر » على « أبصار »وبقي «السمع»مفرداً وذلك في أربع آيات منها: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾(٢) .

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٧ .

(٢) سورة النحل : الآية ٧٨ .

وقد شذت واحدة عن هذا النمط هي :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾(١) .

على أننا لا نجد « السمع » مجموعاً على « أسماع » وهي تجاور « الأبصار » . وهذا بعض خصوصيات هذه اللغة الرفيعة .

٥ ـ عين :

وردت « العين » في عشر آيات مجموعة على « عيون » وكلها تعني « عيون الماء » في الكلام على الجنة ونعيمها ، منها :

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾(٢) .

وقد وردت في اثنتين وعشرين آية مجموعة على « أعين » للدلالة على « الأَعيُـنِ » المبصرة وهي أصل المعنى في هذه الكلمة ، ومنها توزعت مجازاً واتساعاً ، ومن هذه الآيات :

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾(٣) .

أقول : إن هذا التوزيع في اختيار أبنية الجمع لاختلاف الدلالة شيء من خصائص هذه اللغة الكريمة مما لا نعرفه في النصوص الأخرى .

٦ ـ غيث :

وردت الغيث في ثلاث آيات منها :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾(٤) .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .
(٢) سورة الحجر : الآية ٤٥ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ١٧٩ .
(٤) سورة الشورى : الآية ٢٨ .

كلها يشير إلى أن المراد الرحمة والخير ، وهذا يعني أن « المطر » قد استعمل استعمالاً آخر في الشر والعذاب كما سنرى .

ومن « الغيث » هذا جاء الفعل غاث وأغاث واستغاث والمصدر الغوث وكلها يعني الرحمة والمساعدة . وهذا بعض خصائص لغة القرآن في اختيار لفظٍ دون آخر .

٧ ـ قصد :

استعملت مادة « القصد » الثلاثية ثلاث مرات في ثلاث آيات فعل أمر في واحدة (اقصدْ) ، ومصدراً هو « قَصْد » ، واسم فاعل هو « قاصد » ، وهذه الثالثة هي موضوعنا في الكلام عليها :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾(١) .

أقول : ذكر الزمخشري في « الكشاف » ان السَّفَرَ « القاصد » هو الوسط المقارب، وجاء في « لسان العرب » : وسفر قاصد ، هو السهل القريب .

أقول : كان الدكتور مصطفى جواد يشير إلى خطأ استعمال المعربين كلمة « مباشر » في قولهم : « بصورة مباشرة » وكان يرى أن يقال بصورة قاصدة .

وعندي أنه توسَّع في فهم « القاصد » للوصول إلى هذا المعنى في اللغة المعاصرة .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤٢ .

٨ ـ مطر :

وردت كلمة « مطر » وهي مصدر في سبع آيات كما وردت فعلاً في سبع آيات أُخَر ، وفي آية واحدة جاءت اسم فاعل « ممطر » من الرباعي . وكلها ينصرف إلى العذاب والنذر بالشر ومنها :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾[1]

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾[2] .

قلت : لقد فرَّقت لغة التنزيل العزيز بين المطر والغيث ، فكان المطر عذاباً وشراً ونذراً بالويل والثبور ، وكان الغيث رحمةً وخيراً ونعماً .

هذه جملة مواد آثرت أن أضعها نماذج لهذه اللغة الكريمة وكيف انصرفت لدلالات تملك من خصوصية المعنى ما لم نره في غيرها من النصوص العربية .

---

(١) سورة الشعراء : الآية ١٧٣ .

(٢) سورة الحجر : الآية ٧٤ .

الفصل الرابع

من بديع القرآن

أريد بـ « بديع القرآن » ضرباً من الاستعمال يقوم على أن تؤدي الكلمة معناها كما تؤدي ضرباً من الحسن يتأتّى من بنائها وهيأتها كما يتأتّى من مجاورتها لغيرها من الكلم . ألا ترى أن نون التنوين تلحق طائفة كبيرة من الأسماء فتكسبها الحسن والجمال والقوة ، وقد تعرى من هذه النون طائفة أخرى فتكون الكلمة متصفة بالحسن والطلاوة التي لا نحسها لو لحقت بها هذه النون . وقد يكون شيء آخر من أمر النون فقد تلحق الكلم الذي يخلو منها وهو مفرد ، ولكنه يجمل بها وهو يجاور كلماً آخر حُلِّيَ بهذه النون . ألا ترى أن من بديع كمال هذه اللغة القرآنية أن جمهرة من القراء قرأوا : « سلاسلاً وأغلالاً وسعيراً » ؟

كان حق « سلاسل » ألاّ تنوّن ، وعدم تنوينها يوفر لها الحسن والجمال . ولم يشأ أهل العربية من النحاة واللغويين أن يبحثوا في علة عدم تنوين هذه الجموع التي أسموها بـ « منتهى الجموع » واكتفوا بقولهم : إن بناء منتهى الجموع علة بمنزلة علتين ، والعلتان سبب يجب أن يتوفر في خلوّ الاسم من التنوين .

أقول : من الخير أن نفارق هذا العلم النحوي لننظر في هذه المباني التي أسموها « منتهى الجموع » لنجد أنها مبانٍ اتصفت بالطول ، وبكثرة

الأصوات ، فقد تكون خمسة أصوات أو ستة ، وكثرة الأصوات مؤذنة بالكفاية ، فليس من الحسن أن يزاد فيها نون أخرى . غير أن هذه الزيادة وجبت من أجل أن يتم الانسجام والتشابه الذي عُبِّر عنه بالتناسب او المشاكلة .

وسآتي على نماذج من هذه المواد التي قصد فيها هذا الضرب من التناسب الذي استحسن ولو تجاوز الحدود فخالف بناءً ، أو جار على قاعدة نحوية ، أو ابتعد عما ألف المعربون في نظام الجملة العربية .

ألا ترى أنك تقرأ سورة الفاتحة فتجد فيها من حسن النظام وبديع التناسب ما لا تحصل عليه في كثير من النصوص ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .

أقول : لعل العربية فريدة بين اللغات القديمة والحديثة التي أَحَسَّ بحسن أصواتها المعربون ، فدرجوا على نمط من المشاكلة يوفر الحسن والجمال. قد تدرك أن الميم والنون قد تَوَزَّعا هذه الآيات البيِّنات، فجعلا منها قطعة بالغة في الحسن ، مستوفية في نظمها وبنائها ما لا يمكن أن تجده في المأنوس من فرائد الشعر .

قال ـ جلَّ وعلا ـ الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم . . .

لا بد لنا أن نقول : إن أسلوب هذه السورة يؤدي مادة الدعاء والتقرب إلى العليّ العظيم وإن جاء أول السورة جملة خبرية . ومن المعلوم أن لغة الدعاء ينبغي لها أن تشحن بمادة عاطفية ، فجاء قوله على لسان النبي

وجمهرة المسلمين « الحمد لله رب العالمين » وانتهت الآية « برب العالمين » وكانت النون في هذا الجمع المذكر نهاية جميلة بعد أن وصف هذا الموصوف العلي العظيم بقوله : « الرحمن الرحيم » . فلو قُدِّرَ لك أن تفارق الحسن والذوق والبلاغة فقلت : « الرحيم الرحمن » ولم تُخِلَّ بالصفتين ، ولكنك أخللت بالترتيب ، لرأيت أن في قوله « الرحمن الرحيم » فائدة أية فائدة ، في توفير التناسب في هذا التقسيم البديع . ثم إن هذا الحسن لم يتم بطريقة السجع ولكنه إخاء بين صوتين التأما في العربية التئاماً عجيباً .

لم يفطن اللغويون لمادة الإبدال التي تقع في الميم والنون ويقفوا على السر في ذلك . لقد تم هذا التناسب في هاتين الآيتين بعيداً عن السجع ، ولله في ذلك حكمة بالغة . ثم جاءت الآية الثالثة « مالك يوم الدين » فتم هذا التناسب من النون إلى الميم إلى النون ثانية .

إنا لَنجد في القراءات ولا سيما غير المشهورة أن أحداً من القراء قرأ : « مَلِكِ يوم الدين » وهذه القراءة مخالفة للقراءات الكثيرة التي توفر لها ما يشبه الإجماع .

أقول : إن التزام القراءات الكثيرة بلفظ « مالك » قد يكون دليلاً على أن الآية وهي مشتملة . على اسم الفاعل « مالك » أوفر للحسن وإتمام الوزن منها لو أنها اشتملت على « مَلِك » ونأتي إلى الآيتين الرابعة والخامسة ، وهما : إياك نعبُدُ ، وإيّاك نستعين .

فنجد أنهما بدأتا بلفظ « إياك » وهو المقصود بالعبادة والاستعانة ، وهو الله ـ جل شأنه ـ والتقديم يوفر نظام الفواصل الذي انعقدت عليه السورة . وليس كما ذهب غير واحد من أن التقديم لغرض الحصر . وهذا يعني أن العناية بالشكل في نظام الفواصل هذا هي وحدها استدعت هذا التقديم وليس من أجل غرض آخر .

ثم نأتي إلى الآية السابعة فنجد أسلوب الدعاء المتوصَّل إليه بفعل الأمر ﴿إهدِنا الصِراطَ المستقيم﴾ ونعود إلى نظام الفواصل وليس السجع منتقلين من النون إلى الميم . ثم إنك لو نظرت إلى هذه الفِقَرِ أي الآيات وجدتها موجزة مقدَّرة على طول معيّن ، تفي عنه ما يخرم هذا القياس الذي يشبه الوزن . ألا ترى أن الفعل « إهدنا » وصل إلى مفعوله بغير « إلى » وقد وجدناه في آيات أخرى يلتزم بهذه الأداة ، كما في قوله تعالى : ﴿وَاهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [سورة ص : الآية ٢٢] .

إنه من غير شك قد وصل الفعل « إهدِنا » إلى مفعوله « الصراط » ليتم بناء حسن يكاد يكون موزوناً ، ولو جيء بالأداة « إلى » فقلنا : « إهدنا إلى الصراط المستقيم » لعَرِيَ التركيب من هذا النظام المقدر الذي يشعرك بالوزن حفاظاً على النمط البديع الذي يقوم على الشكل طولاً وقصراً . وأنت تحسّ هذه العناية بشكل الآية وطولها في الآية الثامنة في قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وقد وُصفوا أخيراً بقوله : « غير المغضوب عليهم » ، ثم لم يقل وغير الضالين بل تجاوزها إلى أداة النفي فقال : « ولا الضالين » .

إن جملة هذه العناية بطول الآية واستبدال بعض الكلم ببعض مقصود لما يؤدي إليه من نظام حسن هو أسلوب « بديع القرآن » .

وقد يقال أن « السجع » قد يكون ثقيلاً ، مُخِلاً بالكلام لأنه يجور على المعنى فقد تؤثَر السجعة وهي تنال من إصابة الغرض فلا يوصل إلى المراد إلا بعد لأي . غير أن هذا النظام من السجع الذي دُعي بـ « الفواصل » ، قد نُفِيَ عنه ما يؤدي إلى شيء من هذا النقص ، وتلك حكمة الله في كلامه المقدَّر الموزون على قدر المعاني .

ولْنأخذ سورة الإخلاص وهي كلّها فواصل مسجوعة هي :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ .

ولْننظر إلى هذا التقسيم البديع في هذه الآيات المقدرة المقيسة بمقياس دقيق موزونٍ فنجد هذا البناء المتين والفواصل البديعة التي روعيت في الآيات الأربع بحيث قُدِّمَ الخبر في الآية الأخيرة ليسلم البناء على هذا النمط من الحسن ، مع إصابة للمعنى المراد . ولا يذهبن بك الظن أن الحسن قد توفر للسجع فيه ، ولكنه هو التقسيم في هذه الآيات المقدّرة المقيسة مع هذه الفواصل المسجوعة قد جاء بهذا الحسن البديع . ألا ترى أن قوله تعالى في سورة النصر :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ .

قد خـلا من الفواصل المسجوعة ، وهو مع هذا مشتمل على الحسن لما وفّر له هذا التقسيم البديع في الآيات من الكمال والجمال ما لا تجده في كثير من فنون الإعراب .

وليست الفواصل أو قل السجع وحده وفر الحسن والجمال الفريد في كتاب الله ذلك أن فيه من فنون العناية ما لا تقف إلا على شيء منه في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ

ما زلت أذكر منذ أيام الطلب أن ابن الأثير في « المثل السائر »[1] أشار

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر ١/١٩٥ (طبعة محيي الدين عبد الحميد) .

إلى شيء من هذا فتكلم على قول النبي ـ صلوات الله عليه ـ : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » والأصل موزورات من الوزر وهو الذنب ، ولكن لغة الحديث الشريف آثرت هذا الضرب من التناسب أو قل التشاكل لِتَلْتَئم الكلمة مع رصيفتها « مأجورات » . ألا ترى أن مراعاة النظير توخياً للحسن حمل على سلوك هذا السبيل ؟

ومن هذا نُوِّنَتْ « قواريراً » الثانية في قوله تعالى[1] : ﴿قَوَارِيراً مِنْ فِضَّةٍ﴾ .

لتناسب « قواريراً » الأولى التي قبلها ، كما نوّنوا « يغوثاً ويعوقاً » في قوله تعالى[2] : ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ .

ليناسبا « نسراً »[3] .

ومن هذا ما جاء في سورة الرعد[4] .

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، الكبيرُ المُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ .

لقد جاء « المتعال » في الآية . وهو منقوص حذفت ياؤه لتشاكل سائر الفواصل في الآيات .

وقال العكبري : حذفت للتشاكل ولولا ذلك لكان الجيد إثباتها[5] .

---

(١) سورة الإنسان : الآية ١٦ .

(٢) سورة نوح : الآية ٢٣ .

(٣) انظر الصبان ، ٢٧٣/٣ .

(٤) سورة الرعد : الآيات ٨ ـ ١٠ .

(٥) العكبري : إملاء ما منّ به الرحمن ٦٢/٢ .

ومثل هذا الضرب من المشاكلة والتناسب ما جاء في قوله تعالى[1] :

﴿قَالَ فِرْعَونُ مَا أُرِيكُمْ إلاّ مَا أَرَىٰ ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إلاّ سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .

ألا ترى أنه لم يجيء في الآية « التنادي » وهو الصحيح المتطلّب ، وعُدِل عنه إلى « التناد » بحذف الياء توخياً للمشاكلة بين الفواصل فهي : الرشاد والعباد والتناد وهاد .

وقد تلجيء رعاية الفاصلة إلى حذف ما لا يحذف إلّا لأداء غرض فني كالذي نلقاه في قوله تعالى[2] .

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ .

حذف معمول « أخفى » والتقدير ـ والله أعلم بمرادِه ـ وأخفى السِرَّ عن الخلق على تقدير : أخفى « فعلاً » ، وعلى تقديرِهِ إسماً فالمحذوف الجار والمجرور ، أي : وأخفى منه[3] .

ومن الحذف مما لا يجوز حذفه إلا في مقامٍ كهذا يستدعيه ضرب من المشاكلة أو التناسب قوله تعالى[4] :

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ

---

(١) سورة غافر : الآيات ٢٩ ـ ٣٣ .

(٢) سورة طه : الآية ٧ .

(٣) العكبري : إملاء ما منّ به الرحمن ٢/١١٩ .

(٤) سورة الفجر : الآيات ١ ـ ٥ .

﴿فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ فقد حذفت ياء الفعل « يسري » وهو غير مجزوم بأداة جزم . وهذا يعني أن رعاية الفواصل القائمة على الراء المكسورة بكسرة طبيعية تأبى أن تطول الكسرة بعد الراء في الفعل فيكون منها المد الطويل بالياء . إن في ذلك مراعاةً لطول الفِقَر التي تضمَّنَتها الآيات ، وحيث أن الياء تخلّ بهذا الطويل المقدّر المقيس حذفت مشاكلةً وتناسباً .

ومثل هذا الحذف حذف ياء الإضافة في قوله تعالى[1] :

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ .

ومن الحذف الذي اقتضته مراعاة الفواصل وما تؤدي إليه من الحسن حذف المفعول به كما في قوله تعالى[2] :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ .

والتقدير : وما قلاك ، ولكن المفعول به قد حذف ليناسب « سجا » .

ومن هذا الحذف ما ورد في سورة طه[3] وهو في قوله تعالى :

﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ ﴾ .

وإذا كان الحذف يوفّر التناسب أو المشاكلة فإن الزيادة أيضاً ترمي إلى هذا الغرض ، ومن ذلك قوله تعالى[4] : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾

ولولا رعاية الفواصل وما ترمي إليه من التناسب توخياً للحسن لكان من

---

(١) سورة القمر : الآيات من ١٤ الى ٢٤ وفيها يبدو التناسب والمشاكلة .

(٢) سورة الضحى : الآيات ١ ـ ٣ .

(٣) سورة طه : الآية ٣ .

(٤) سورة الأحزاب : الآية ١٠ كما يجب أن ننظر إلى فواصل الآيات السابقة واللاحقة .

الصواب والصحة أن تكون الآية : « وتظنون بالله الظنون » .

ومن هذه الزيادة المقصودة التي تؤدي إلى التناسب وإحسان البناء قوله تعالى[1] :

﴿إِنَّ اللَّه لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ .

وقد زيدت الألف في « الرسولا » و« السبيلا » لتناسب الفواصل السابقة واللاحقة . وقد أشرنا إلى زيادة هاء السكت في سورة الحاقّة في قوله تعالى : ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ وفاء بالتناسب والحسن .

ولعل المشاكلة والتناسب هما السبب في كون « النخل » مرةً مذكراً وأُخرى مؤنثاً كما في قوله تعالى : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾[2] ، وقوله : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3] .

وقد قال أهل العربية أن اسم الجنس واسم الجمع يندرجان في حكم التذكير كثيراً ، وإن لم يكن هذا مما يؤيده الاستقراء تأييداً تاماً فقد جاء في قوله تعالى : ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[4] فقد وصف النخل بـ « باسقات » صفة مؤنثة مجموعة ثم عاد الضمير عليها وهو مفرد مؤنث ،

---

(١) سورة الأحزاب : الآيات من ٦٤ إلى ٦٨ .

(٢) سورة القمر : الآية ٢٠ كما ينظر الآيات السابقة واللاحقة .

(٣) سورة الحاقة : الآية ٧ كما ينظر الآيات ما قبلها وما بعدها .

(٤) سورة ق : الآية ١٠ .

وهذا شيء من خصائص لغة القرآن وما أفرغه الله فيها من الفوائد التاريخية الحسان .

وقد يكون للكلمة في العربية وجهان من حيث بناؤها ، ولكنها تأتي على وجه من هذين الوجهين دون الآخر مراعاة للفواصل ، ومن هذا جاءت كلمة « رَشَد » بفتحتين ولم تأت بالوجه الآخر وهو الضم والسكون وذلك في قوله تعالى[1] : ﴿فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً﴾

وفي قوله تعالى[2] : ﴿وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ .

وإنما التزم وجه التحريك بفتحتين لما جاء في السورة من الفواصل التي فتح منها الوسط . قرأ بذلك السبعة ولم يقرأ أحد من القراء بالوجه الآخر « رُشْداً » بضم الراء وإسكان الشين مع أنه وجه جائز صحيح ، وذلك رعاية للتناسب والمشاكلة .

وقد جاءت كلمة « الرشد » معرّفة بالألف واللام فقرئت بضم الراء وسكون الشين وذلك لأن الحاجة لا تدعو إلى مراعاة الفواصل ، فلما انتفى هذا السبب قرىء بالوجه المشار إليه كما قرأ حمزة والكسائي بالتحريك بفتحتين على الوجه الآخر[3] .

ومثل هذا الالتزام بوجه واحد مراعاة للمشاكلة ما ورد في قوله تعالى[4] :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾ .

---

(١) سورة الجن : الآية ١٤ .
(٢) سورة الكهف : الآية ١٠ .
(٣) تفسير الآلوسي ٩/٥٥ .
(٤) سورة المسد : الآيات ١ ـ ٣ .

إن « لَهَب » الأولى بفتح الهاء أو سكونها ، ولكنها قرئت بالفتح وقرئت « لَهَب » الثانية بالفتح ليس غير رعاية للأولى .

على أنه ورد في تفسير الآلوسي : أَنَّ ابن محيصن وابن كثير قرأا « أبي لَهْب » بسكون الهاء[1] .

وإذا كانت المناسبة ورعاية الفواصل قد استدعت أن ينوَّن ما لا يقبل التنوين في العربية من الكلم، فقد نجد في كلام النحاة تعليقاً على قراءة بعض الآيات ما يشعر بأن ترك التنوين قد يأتي لغرض التناسب والمشاكلة .

قال ابن هشام :

وقُرِىء ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ، كما قرىء : ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ﴾ بترك التنوين في « أَحَدَ وسابق » ونصب النهار[2] .

ولم يشأ ابن هشام أن يفسِّر حذف التنوين بالتناسب كما بَيَّنا ، بل ذهب إلى أن العلة التقاء الساكنين وهو قليل وقد قاسه على قول أبي الأسود الدؤلي :

فَـأَلفيتُـه غيـرَ مُستعْـتِبٍ ولا ذاكـرِ اللَّـهَ إلّا قَـلِيـلا

قال ابن هشام : آثر ذلك على حذفه للإضافة لإرادة تماثل المتعاطفين في التنكير .

وقلت في الكلام على سورة الفاتحة : إن لغة القرآن تشتمل على أسلوب من تقديم بعض المواد التي حقُّها التأخير وذلك ليتم نمط من البناء والتركيب تُراعى فيه الفواصل فيتوفر من الحسن ما لا يتوفر لو كان التركيب والبناء على طبيعته .

---

(١) تفسير الآلوسي ٢٦٢/٣٠ .

(٢) المغني ٧١٦/٢ .

ومن هذا قوله تعالى[1] : ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ .

إن تقديم الجارّ والمجرور « على رجعه » مراعاة للفاصلة التي توفر الحسن .

ومثل هذا من أسلوب التقديم قوله تعالى[2] :

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾

فقد قدم الجارّ والمجرور « عنه » ليسلم البناء القائم على الفواصل المتماثلة .

وقد يتجاوز التزام الفواصل أو قل السجع حيز الصوت الواحد الى صوتين توخياً للمشاكلة المطلوبة التي يتم بها التناسب البديع كقوله تعالى[3] : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ * وأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾

ألا ترى أن المشاكلة تجاوزت الراء في الآيتين إلى الهاء السابقة للراء ، وفي هذا ما فيه من الذهاب الى الحسن .

وقوله تعالى[4] : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . .﴾

فقد التزم الراء في الآيتين وما بعدهما قبل الكاف .

وقد يتوفر في الآيات أن يلتزم جرف زيادة على حرف الفاصلة ، كما

---

(١) سورة الطارق : الآيتان ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الإسراء : الآية ٣٦ .
(٣) سورة الضحى : الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٤) سورة الشرح : الآيتان ١ ، ٢ .

يلتزم البناء أو ما في وزنه أو ما هو قريب منه كقوله تعالى[1] :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ .

ألا ترى أن السين فاصلة فالتزمت النون المشدّدة قبلها ثم أن البناء من أبنية جموع التكسير ؟

ومن هذا قوله تعالى[2] : ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾

لقد التزمت الراء فاصلة ، ثم التزمت الطاء وبينهما الواو يحفظ شيئاً من الوزن والتقدير توافق الأصوات .

إن الأصوات المتباعد مخارجها تؤلف الكلمة الفصيحة المقبولة ، ولا يمكن أن تتألف من الأصوات المتقاربة في مخارجها ، وإلى هذا أشار أهل البيان في فصاحة الكلمة الواحدة . جاء في « اللسان » :

والحروف المتقاربة لا تأتلف في كلمة واحدة أصلية الحروف ، فقبح على ألسنة العرب اجتماع الحاء والهاء ، لأن الحاء في الحلق بلزق الهاء ، ولكنهما يجتمعان في كلمتين لكل واحدة معنى على حدة ، قال لبيد :

يتمادى في الذي قلت له ولقد يسمع قولي : حيَّ هَلْ[3]

ولا تأتلف العين والحاء للسبب نفسه .

قال الخليل : « العين والحاء لا يأتلفان في كلمة واحدة أصلية الحروف لقرب مخرجيهما إلاّ أن يؤلف فعل من جمع بين كلمتين مثل حيَّ على فيقال من « حيعل »[4] .

---

(١) سورة التكوير : الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة الطور : الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) لسان العرب : مادة (حيو) .

(٤) كتاب العين (المقدمة) .

وقالوا : لم تأتلف الصاد مع السين ، ولا مع الزاي في شيء من كلام العرب[1] .

وقالوا أيضاً : تأليف القاف والكاف معقوم في بناء العربية ، لقرب مخرجيهما إلاّ أن تجيء كلمة من كلام العجم معربة[2] .

وهذا يعني أن أبنية العربية جميعها خلت من ائتلاف هذه المجموعات من الأصوات لقرب مخارجها بعضها من بعض . غير أن في العربية ميلاً إلى أن يدخل الصوت في الصوت الآخر ، دخولاً منسجماً، وهو ما عبروا عنه بالإدغام . وهذا الإدغام أداء صوتي منسجم بين صوتين تجاورا في المكان وتقاربا في الصفة . ولا يعدو هذا إلا أن يكون شيئاً مما ندعوه مشاكلةً أو تناسباً .

وقد يتغلب في هذا التناسب الصوت السابق على اللاحق أو العكس .

قال ابن جنّي في هذا الباب في أن « الإدغام » يدخل في « تقريب الصوت من الصوت » فقال :

ألا ترى أنك في قطَّعَ ونحوه قد أخفيت الساكن الأول في الثاني حتى نبا اللسان عنهما نبوةً واحدة ، وزالت الوقفة التي كانت تكون في الأول لولم تدغمه في الآخر .

ألا ترى أنك لو تكلّفت ترك إدغام الطاء الأولى لتجشّمت لها وقفة عليها تمتازها من شدّة ممازجتها للثانية بها كقولك : قطْطَعَ ، وهذا إنما تحكمه المشافهة به ، فإن أنت أزَلْتَ تلك الوقيفة والفترة على الأول خَلَطته بالثاني فكان قربه منه ، وإدغامه فيه أشد لجذبه إليه ، وإلحاقه بحكمه »[3] .

---

(١) لسان العرب (حرف الصاد) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الخصائص ١/٥٣١ .

وقد عدَّ ابن جنِّي أن « الإمالة » ضرب من الإدغام سمَّاه « الإدغام الأصغر » وملاكه أنَّ تقارباً بين صوتين يؤدي إليه ، وإن لم يكن الصوتان متماثلين فيدخل أحدهما في الآخر فيكون من ذلك صوت واحد كما أشرنا ، قال :

وأما الإدغام الأصغر فهو تقريب الحرف من الحرف ، وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك ، وهو ضروب(١) .

أقول : وجملة هذه المواد من الإدغام والإمالة وكثير من ضروب الإبدال تدخل في باب التناسب والمشاكلة .

إن كثيراً من الإبدال الصرفي يدخل في باب المشاكلة والتناسب ، ومن هذا ما جاء على « افتعل » مما كان فاؤه زايأً أو دالاً أو ذالاً فتبدل تاء « افتعل » دالاً فنقول : ازدَحَمَ وادَّعى (بعد الإدغام في الدال) واذدكر . ثم إن هذا الفعل الأخير قد يتحول للسبب نفسه إلى « اذَّكر » أو « ادَّكر » .

ومثل هذا مما كان فاؤه صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً فتبدل تاء « افتعل » طاءً فنقول : اصطلح واضطرب واطَّرد (بعد الإدغام في الطاء) واظطلم .

ولعل كثيراً من المواد الصوتية مما يتصل بالترقيق والتفخيم ويدخل في باب حسن الأداء والتلاوة ، راجع إلى ما ندعوه بـ « المشاكلة » .

ومن هذا ترقيق الألف وتفخيمها .

والألف ترقق بعد الأصوات المستفِلة وعِدَّتُها اثنان وعشرون ، فالألف رقيقة في عالم وحامد وسافل ، وتُفَخَّم بعد أصوات الاستعلاء وعِدَّتُها سبعة والألف مفخمة في خامل وصاحب وضابط وغير ذلك .

---

(١) انظر : « الإمالة في القراءات واللهجات العربية » لعبد الفتاح شلبي ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٣ .

وحروف الاستعلاء جمعوها في قولهم : « خص ضغط قظ » ، وهذا يعني أن غير هذه السبعة هي الحروف المستفِلة .

ومن هذه المشاكلة الصوتية ترقيق الراء وتغليظها .

جاء في كتاب « الكشف » لمكي بن أبي طالب :

« واعلم أن الراء التي يجوز تغليظها وترقيقها تكون ساكنة ومفتوحة ومضمومة : فأما الراء الساكنة فحرف ضعيف لسكونه ، فهو يديره ما قبله مرةً ، وما بعده مرة لضعفه في نفسه ، فإذا كان قبله كسرة لازمة غير عارضة رققت الراء لقربها من الكسرة التي قبلها .

وإذا كان بعدها ياء رققت لقربها من الياء التي بعدها، وذلك في الكسر نحو : من فِرعَون ، وأنذرهم . وفي الياء نحو : مَرْيَم ، قرية ، فإن انكسر ما قبلها ، وأتت الياء بعدها فذلك أقوى في ترقيقها نحو : مِرْية [سورة هود : من الآية ١٧] .

فهذا حكمها ما لم يأت بعدها حرف من حروف الاستعلاء ، فإن أتى بعدها حرف من ذلك غلب على الراء التغليظ للحرف المستعلي الذي بعدها نحو فِرقة ، وإرصاداً [في سورة التوبة : من الآية ١١٢ ، ١٠٧] إلا أن تكون حركة الحرف كسراً فتضعف عن تغليظ الراء فترقق للكسرة التي قبلها وبعدها وذلك نحو قوله : ﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾[1] [سورة الشعراء : من الآية ٦٣] .

ومن الترقيق والتفخيم بسببٍ من المشاكلة والتناسب ما حصل من ترقيق اللام وتغليظها .

---

(١) الزمخشري : الكشاف ١/٢٠٩ ـ ٢١٠ .

إن اللام من اسم « الله » جل ذكره مفخمة أبداً ؛ تقول : ﴿ اللَّهُ رَبِّي ﴾ [سورة آل عمران : من الآية ٥١] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ ﴾ [سورة آل عمران : من الآية ٥٥] وقوله تعالى : ﴿ وَلَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [سورة الصّافّات : من الآية ٣٥] ، ولا تزال اللام مفخّمة إلا أن يأتي قبلها كسرة فإن زالت الكسرة رجعت اللام إلى التفخيم تقول : باسمِ اللَّهِ ، باللَّهِ ، لِلَّهِ ، فترقق اللام للكسرة التي قبلها(١) .

وقد تفرَّد ورش عن نافع بتفخيم اللام لحرف الإطباق قبلها ، وذلك إذا كان قبل اللام : طاء أو صاد أو ضاد ، فالذي يفخّم نحو : ﴿ ظَلَمُوا ﴾ [من سورة البقرة : في الآية ٥٩] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ [من سورة البقرة : في الآية ١١٤] ، والصلاة ، ومُصَلًّى ، والطلاق ، وطلّقتم ، قرأه ورش بالتفخيم ليعمل اللسان عملاً واحداً(٢) .

وهذا كلّه من باب المشاكلة التي يستدعيها قرب الصوت من الصوت . ألا ترى أنهم قرأوا في سورة الفاتحة : « إهدنا الصراط المستقيم » بالصاد في « الصراط » ، ولم يقرأوا بالسين وهو الأصل وذلك لمكان الطاء التي بعدها .

ولو استقرينا العربية لوجدنا شواهد كثيرة في هذا الباب من غير كلام الله ـ جل شأنه ـ ثم إننا لو تعقبنا هذا الباب وجدنا أن أبنية العربية جرت على نمط من التوافق والانسجام في الأصوات ما لا تجده في كثير من اللغات ولا سيما أخوات العربية المعروفة .

---

(١) الكشّاف : ١/٢١٩ .
(٢) المصدر السابق .

وسآتي بشواهدَ من أبنية جموع التكسير وأقف عليها لأشير إلى مكان المشاكلة في الأصوات .

إن بناء « فُعل » من أبنية هذا الجمع فنحن نجمع « أحمر وحمراء » ، هذا الجمع فنقول « حُمْر » ولكننا نصير إلى شيء آخر إن كان عينه ياءً أو واواً فنقول في أبيض وبيضاء « بِيض » فنكسر الباء لمكان الياء في الكلمة وكأن الوزن هو « فِعْل » . ومثل هذا نقول في «أسودَ وسوداء » « سُود » والأصل سُوْد ولمكان الضم بعد السين نتحول من الواو التي تشبه الأصوات الساكنة إلى المد وهو صوت نأتي إليه من الضم بعد السين ، وليس هذا إلاّ لتحقيق المشاكلة والتناسب .

ومن أبنية الجمع المكسر « فُعُول » مثل شهور جمع شهر وشُهود جمع شاهد وقُعود جمع قاعِد ، وجِثِيّ جمع جاثٍ .

وهذا الجمع الأخير قد عرض له ما عرض بسبب مشاكلة الأصوات حتى تحوَّل إلى هذه الصيغة والأصل « فُعُول » بضم الفاء والعين . لو اتبعنا طريقة الصرفيين وهم على حق في الوصول إلى الأمر لقلنا أن الأصل « جُثوو » ثم كان إبدالٌ للواو الأخيرة فصارت ياءً ، ثم إبدال واو المد ياءً ثانية فصار « جُثُى ي » ، ثم أُبدلت ضمة الثاء كسرة للمناسبة ثم تبعتها ضمة الجيم فصارت كسرة للمناسبة أيضاً فصارت « جِثِيّ » وبها قرىء : ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[1] .

وليس هذا في لغة القرآن وحدها ألا ترى أنهم جمعوا « قوس » على « قِسِيّ » فكان لها ما كان لـ « جِثِيّ » .

---

(١) سورة مريم : الآية ٧٢ .

وقد يأخذك العجب حين تجد كلمة أخرى كان حقها أن يعرض لها ما عرض لـ « جِثِيّ » ولكنها وردت على صورة أخرى هي « بُكِي » جمع باكٍ كقوله تعالى[1] : ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ . قرئت بضم الباء ولم تعمل فيها المشاكلة فوَليت الكسرة الضمة على غير ما تقتضيه المشاكلة الصوتية .

وبعد ، فهذه نماذج من فرائد اللغة كان فيها لمشاكلة الكلم وتناسب الأصوات مكان بارز دَلّ على مبلغ ما بلغته لغة التنزيل من الحسن الفائق الذي وفّرته أسرار هذه الصنعة العليّة .

---

(١) سورة مريم : الآية ٥٨ .

الفصل الخامس

البيئة العربيّة في القرآن

ما زال القرآن مصدراً لدراسات كثيرة ، وما زالت لغة التنزيل تمدّنا ، بل توحي إلينا بالبحوث الأصيلة ، والدراسات الممتعة . ولقد بحث الأقدمون القرآن وتناولوه من نواحٍ عدة دينية وفقهية وفلسفية ولغوية وأدبية وتاريخية ، وجملة بحوثهم تفوق المعروف في الدراسات القديمة في موضوع علوم القرآن ، ذلك أن هذا الباب ربما انصرف إلى نواحٍ لا يتعداها إلى غيرها من فروع المعرفة التي تبحث في سُوَرِ القرآن وآيه، وأسباب النزول ، ومعاني القرآن و« مجازه » ، وعلوم التفسير ، وطبقات المفسّرين ، وشيئاً آخر يتصل بالدراسات من قريب .

وما أظن أن الدراسات القرآنية تقتصر على هذه العدة من الموضوعات، ولا المنهج الذي باشره الأقدمون من علماء المسلمين - عليهم الرحمة - . ومهما كان من هذا وذاك فإن سلفنا الصالح قد عنيَ بالقرآن ، وقد ترك لنا فيما ترك تراثاً مُهِماً تزهو به المكتبة العربية الإسلامية .

ولكني لا أقول : كم ترك الأول للآخر . فما زال فينا حاجة للعود إلى التنزيل العزيز لنستوحيَ منه الشيء الجديد. وفي الحق أن نقول : إنّ جيلنا الحاضر لم يُوْلِ كتابَ الله الشيء الكثير من عنايته واهتمامه ، فهو مقصر في هذا الباب مأخوذ بهوى العصر ومغرياته في الابتعاد عن كل أثر قديم .

ولقد قيَّض الله لي أن أهتم بتاريخ القرآن ، ومسألة لغة القرآن ، والبحث في القراءات واستناد هذه القراءات على شيءٍ من اللغات الخاصة ، وقد أفدت من طول عهدي بالقرآن ودرس مادته اللغوية فوائد كثيرة وَدِدت أن أبحث شيئاً منها فأقول :

أثر البيئة في تصوير الجحيم

إن الباحث في نصوص القرآن لا بد أن يجد في لغته القويمة شيئاً فيه تصوير هو ألصق ما يكون بالبيئة العربية ، والبيئة العربية على اختلاف أقاليمها بين مجدبٍ يفتقر إلى الماء والكلأ ، ووريقٍ نضر يعمر بالنبت والشجر ، قاسية أشدَّ القسوة بين حمارَّة القيظ وصبارَّة القر . والعربي يعاني من بيئته القاسية ما يعاني ، وهي لا بد أن تنعكس في أدبه ، والباحث في الأدب العربي مهتدٍ إلى مادة كثيرة في هذا الموضوع .

وإذا تأملت تصوير القرآن للجحيم مثلاً وجدته يصوّر الجحيم على هيئة تشعر فيها إدراكاً تاماً للبيئة العربية الطبيعية ، كما يتضح لك إدراك تام للحياة العربية الاجتماعية . فأنت على علم بصفة جزيرة العرب كما وصفها الجغرافيون المسلمون كابن حوقل في « صورة الأرض » مثلاً ، وكما وُصِفَتْ في العلم الحديث ، ولقد أبدعت لغة القرآن في وصف هذا العالم المخيف في صوَره المختلفة . وقد فهم سكان البيئة العربية هذه اللغة التي تسري إليهم بما يدركون من معانيها وصوَرها ، وهم يحتفظون بشيء كثير من أبعاد هذا العالَم الذي تنقله إليهم لغة التنزيل العزيز .

ومشاهد العذاب في الجحيم يعرضها القرآن مادية حينا ، ومعنوية حيناً آخر ، وشيئاً بين الأثنين أحياناً أُخرى .

إن عالَم الجحيم عالَم يعيش فيه البشر الذي حُكم عليهم بالعذاب ،

لهم فيه مِهاد وطعام وشراب ولباس . . . إن العذاب الأكبر الذي يلقاه المجرمون المكذبون بآيات الله هو عذاب الحريق في النار . فقد صَوَّرَ القرآن الجحيم ، عالَماً من النار لا تخبو جذوَته إلى الأبد . والعربي يدرك هذا العذاب الأكبر إدراكاً لا يجاريه فيه أحد ، ذلك أنه خَبِرَ من بيئته شيئاً قليلاً من جنس هذا العذاب ، فقَسوَة البيئة العربية وقَيظها البالغ وشمسها المحرقة أمور معروفة ، هذه هي السمة الكبرى في جحيم القرآن .

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١) .

وقال ـ جل شأنه ـ ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾(٢) .

فالعذاب هو عذاب النار الذي لا يؤدي إلى الموت ، والذي يصطلي بتلك النار الكبرى لا يموت فيستريح ، ولا يَحيَا فيستمتع ، وإنما هو في عذابٍ متصلٍ لا نهاية له ، فما أظن أن غير أبناء هذه البيئة العربية بقادرين على تصوُّر هذا العذاب الأليم . ذلك أن لهؤلاء من بيئتهم الصحراوية الجافية عذاباً يمدّهم بالقدرة على تصوُّر هذه « النار الكبرى » .

ويصف أدبُ القرآن هذه النار بشيء آخر كما في قوله تعالى :

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ﴾(٣) .

---

(١) سورة التحريم : الآية ٦ .

(٢) سورة الأعلى : الآيات ٩ ـ ١٣ .

(٣) سورة المرسلات : الآيات ٣٢ ـ ٣٤ .

وهكذا فإن شرر هذه النار كالقصر أو كالقصر على قراءة بعضهم، والقصر أصول النخل أو الشجر عامة ، ثم إنها كالجمالة الصفر والجمالة القلوع ، فأنت ترى أن مادة هذا الوصف شيء منتزع من بيئة معروفة . وإذا استقصيت الصوَر القرآنية في هذا الموضوع تبيّنت أنها على هولها وقسوتها شديدة الصلة بالبيئة العربية . أجل كل شيء في صورة الجحيم مما يعرفه البدوي في بيئته .

والآن لنرسم صورة مفصّلة لهذا العالَم الهائل في أبعاده المختلفة :

(١) صورة الجحيم من حيث المكان وعلاقة ذلك بالبيئة .
(٢) ألوان العذاب وما توحيه للقارىء العربي .
(٣) طعام أهل النار وشرابهم وإدراك العربي لهما .

إن الصورة التي تأتي في آي التنزيل العزيز تبرز عالماً بالغ الهول يثوي فيه المجرمون الذين كفروا بالله ، فهم يحشرون أفواجاً وزمرا .

هذا الحيز الكبير تفتح أبوابه ليدخلها الكافرون أفواجاً ، ثم تغلق بعد أن يستقروا في أعماق هذا العالَم الهائل :

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[1] .

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، قَالُوا : بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2] .

---

(١) سورة الحجر : الآيتان ٤٣ ـ ٤٤ .
(٢) سورة الزُّمر : الآيتان ٧١ ـ ٧٢ .

إنّه عالَم واسع يَتَوَلّىٰ أمره ملائكة وزبانية غلاظ شداد لا تأخذهم بأهل النار رحمة ، هناك يذوق هؤلاء الداخلون ألواناً من العذاب وهنالك يعرفون عذاب الحريق في هذه النار التي تَلَظّىٰ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(١) .

التصوير الفني في وصف الجحيم

ثم انظر كيف تستعين لغة القرآن على إجادة تصوير بيئة الجحيم بنظام جميل يعتمد على الفواصل والرصف الجميل فيقول تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾(٢) .

وفي عالَم النار عُمُدٌ يوثَق إليها المعذَّبون ، هنالك حيث ينغلق عليهم هذا العالَم الهائل :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾(٣) .

وتفيد لغة القرآن من أسرار العربية وبلاغتها ، أو قل إن لغة القرآن تعطي العربية ألواناً ينكشف فيها أسرار من البلاغة والجميل من الأساليب . ألا ترى أن القرآن قد جرّد من جهنم صورة متعطشة شرهة تطلب ضحاياها في ظمأ لا يعرف الري ، وشره لا يعرف الاكتفاء :

---

(١) سورة التحريم : الآية ٦ .
(٢) سورة المدّثّر : الآيات ٢٦ ـ ٢٩ .
(٣) سورة الهُمزة : الآيات من ١ ـ ٩ .

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ ؟ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾(١) .

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ، كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾(٢) .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾(٣) .

فهذا عالم تعمره «السعير» التي تفور من الغيظ فيسمع لها شهيق وزئير تلهب جذوَتها هذه الأفواج من الداخلين فيها ، وربما كان العربي أنسب من غيره في إدراك هذه الصوَر المخيفة الهائلة ، ذلك أنه خبر في عالمه الذي درج فيه شيئاً من هذه القسوة التي أشار إليها القرآن .

وتفتقر البيئة العربية في أغلب أطرافها إلى « الظل » الذي يأوي إليه الإنسان فيأمن غائلة الحر وسعير الهجير ، ومن أجل ذلك حفلت نصوص الأدب العربي القديم بحديث الظل وبرده وأمنه وما يتصل بالظل من لوازم هي الشجر والروض والزهر والماء . وقد ورثت العربية هذه العناية بالظل ، فأنت تجد الشاعر يجري في أدبه فيأنس للظل ، ولو نشأ في بيئة لا تعرف الحر ولا الهاجرة ، وأنه فتح عينيه على الروض الناضر ، والطبيعة الضاحكة .

وقد أدركت لغة القرآن هذا المرمى فاستعملت الظل في وصف الجحيم ، ولكن هذا الظل في نوع جديد يلتئم مع بيئة النار القاسية ، فهو ظل من يحموم كما في قوله :

---

(١) سورة ق : الآية ٣٠ .

(٢) سورة المُلك : الآيتان ٧ ـ ٨ .

(٣) سورة الفرقان : الآيات ١١ ـ ١٣ .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾[1] .

ثم تتوسع في وصف هذا الظل على النحو الآتي :

﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾[2] .

فالظل إذاً من « اليحموم » وهو من الدخان الأسود البهيم ، فهو ليس كالظلال الأخرى ، فقد نفى عنه برد الظل وأمنه وما ينجر عنه من طمأنينة وراحة ودعة .

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾[3] .

يقول الزمخشري : « وقيل إذا استغاثوا من النار جعل غياثهم الحميم ، وقيل ، أن وادياً من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل النار فينطلق بهم في الأغلال فينغمسون فيه حتى تنخلع أوصالهم »[4] .

ولقد أطنب القرآن في وصف الأركان المادية لعالَم النار ، فجهنم هي مرصاد للطاغين ، ومآب لهم يخلدون فيها أحقاباً طويلة ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، ولهم فيها « مِهاد » ولكن هذا المِهاد قد حف « بالغواشي » . قال تعالى :

---

(١) سورة الواقعة : الآيات من ٤١ ـ ٤٤ .
(٢) سورة المرسلات : الآيتان ٣٠ ـ ٣١ .
(٣) سورة الرحمن : الآيتان ٤٣ ـ ٤٤ .
(٤) الزمخشري : الكشاف ٢/٥٣٩

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلْطَّاغِينَ مَآباً * لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً﴾(١) .

وقال :

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(٢) .

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المِهَادُ﴾(٣) .

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ﴾(٤) .

وهكذا تعرض آيات القرآن لوصف هذا العالَم وما يقاسيه سَكَنَتُه من ألوان العذاب :

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، ويَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾(٥) .

وهؤلاء الخاسرون يستقبلون المزيد من الأفواج كما تذكر الآية الكريمة :

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ القَرَارُ﴾(٦) .

---

(١) سورة النبأ : الآيات ٢١ ـ ٢٤ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٤١ .
(٣) سورة آل عمران : الآية ١٢ .
(٤) سورة ص : الآيتان ٥٥ ـ ٥٦ .
(٥) سورة الأنفال : الآية ٣٧ .
(٦) سورة ص : الآيتان ٥٩ ـ ٦٠ .

وأنت تجد في آي القرآن الكريم صورة كاملة في وصف الجحيم وأهل الجحيم وما يتقلّبون فيه من ألوان الحياة القاسية ، كما أنك واجد أجزاء دقيقة يكتمل بها المجموع العام ، فأهل النار لهم لباس خاص ، فثيابهم من نار :

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الحَمِيمُ﴾(١) .

ومن أجزاء هذه الصورة العامة عرض الآيات الكريمة لطعام أهل النار ، فهم كالأناسي لا بد لهم من شيء من الطعام ، فإذا عرضت لهذه الآيات ، فقرأت قوله ـ جَلَّ شأنه ـ :

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾(٢) .

وجدت « الضريع » والضريع من نبات بلاد العرب فهو يبيس الشبرق، وهو نبات شائك ترعاه الإبل حين يكون رطباً ، حتى إذا يبس عافته وتحامته ، لأنه يتحوَّل إلى سم قاتل يمزِّق الأحشاء . فهذا لون من طعام أهل النار وهو شيء التمسه أدب القرآن من المادة العربية اللغوية ذات اللون البدوي .

ومن طبيعة هذا الطعام أنه ذو غصّة كما في قوله تعالى :

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾(٣) .

وتبرز شجرة الزَّقُّوم في القرآن وهي لون من طعام أهل النار وتتكرر لفظة الزَّقُّوم في عدة من الآيات . والزَّقُّوم مما ينبت من نبات سام . والعربي يعرف شيئاً من ذلك في بيئته التي خبر أعشابها فعرف الطيِّب من الخبيث .

---

(١) سورة الحج : الآية ١٩ .

(٢) سورة الغاشية : الآيتان ٦ ـ ٧ .

(٣) سورة المُزَّمِّل : الآيتان ١٢ ـ ١٣ .

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الحَمِيمِ﴾[1].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[2].

وتبدع آيات القرآن في وصف هذه الشجرة الملعونة :

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾[3].

ثم إذا كان حديث الطعام فلا بد أن يكون حديثٌ للشراب ، وشراب أهل النار وارد في آيات عدة ، ولا بد أن يكون شرابهم لوناً من ألوان العذاب ، فهم يظمأون ولكن هذا الظمأ لا ينطفىء بشراب بارد طَهورٍ ، بل يكون ماءً حميماً أو صديداً لا يكاد يسيغه .

﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ . . .﴾[4].

والعربي في بيئته القاسية الجافية على بصيرةٍ من ويلاتِ الظمأ ؛ ولذلك فهو يأنس بالبرد والظل والماء والشجر ، ومن هنا يكون إدراكه لظمأ أهل النار الذي لا يُداوَى إلا بالحميم كالمُهْل يشوي البطون .

---

(١) سورة الدخان : الآيات ٤٣ ـ ٤٦ .

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٥١ ـ ٥٣ .

(٣) سورة الصّافّات : الآيات ٦٢ ـ ٦٧ .

(٤) سورة إبراهيم : الآيتان ١٦ ـ ١٧ .

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾(١) .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنها البُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الهِيْمِ﴾(٢) .

وبعدُ فهذا إجمال لآيات مفصَّلات وردت في كتاب الله قد عرضت لوصف النار وأهلها وصفاً لا تأتي عليه إلا قدرة عليم خبير ، ليس إلى إدراك بيانه من سبيل ، ومن هنا جاء الإعجاز ، على أن الوصف المبدع اشتمل في مادته اللغوية على شيء مما أدركه العربي في بيئته كما مر بنا .

صوَر الجنَّة في القرآن

أما الصورة التي جاءت في القرآن عن الجنة ، وما فيها من ألوان النعيم ، وكيف ينعم فيها المؤمنون الذين ارتضاهم الله فأنزلهم « جنة المأوى » ، فهي صورة جميلة يقرؤها العربي فَتتوق نفسه إليها ، وتطمح للفوز بها ، فهي جنة النعيم ، وهي أنهار تجري ، وإذا كانت الأنهار تجري ، فما أظن أحداً من غير العرب يدرك قيمة الأنهار ، ذلك أنه لا يملك الكفاية من الماء والبرد والظلال .

وقد افتقد العرب الماء في بيئتهم القاسية ، وقلّ المطر ، وأجدبت الأرض ، فكان ذلك علامة من علامات الموت والفناء ، ومن أجل ذلك أحبّوا الماء حُبّاً لا مزيد عليه ، ألا تراهم إذا دعوا لأحدهم بالخير دعوا له بشيء يقوم على هذا ، فقالوا : « سقياً ورعيا » .

وأنت إذا بحثت في الشعر القديم ، وجدت الدعاء بالسقي يحضر في

---

(١) سورة محمد : الآية ١٥ .

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٥١ ـ ٥٥ .

أكثر قصائدهم ، وهم لا يجدون أجَلَّ من أن يستهلّوا قصائدهم بالدعاء بالسقي فيقولون مثلا :

يا ليلةَ السفحِ هَلاَّ عُدتِ ثـانيةً سقَى زمـانَكِ هَـطَّالٌ مِنَ الدِّيَمِ

أو كأن يقول الآخر :

متى كـانَ الخيـامُ بـذي طُلوحٍ سُقيتِ الغـيثَ أيـتهـا الـخيـامُ

وما زلنا نذكر الشاهد النحوي القديم :

ألاَ يا ٱسلمي يا دارَ ميَّ على البِلَى ولا زَالَ مُنْهَلاً بجرعائِكِ القَـطْرُ

ومن تعلّقهم بالماء أنهم سموا « المطر » « غيثاً » ثم من « الغيث » ذهبوا إلى « الغوث » الذي يعني ما يعنيه . وأنت إذا رجعت إلى آيات القرآن الكريم وجدتها لا تستعمل « الغيث » إلاّ في مواطن الخير ، كما أنها لا تعدل عنه إلى « المطر » إلا إذا كان قد خرج « المطر » إلى العذاب مجازاً وتوسعاً ، وهذا التفريق على الوجه الغالب في استعمال القرآن الكريم .

فإذا عرفت ذلك تبيَّنت مبلغ إدراك العربي لوصف الجنة في القرآن ولفهمه لها ، وتعلّقه بها . فهو شيء ما كان يطمح أن ينال إلا القليل منه في بيئة تفتقر إلى الماء والأمن والراحة والطمأنينة .

قال تعالى :

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَواْ رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1] .

﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[2] .

---

(١) سورة الزُمر : الآية ٧٣ . (٢) سورة الزُمر : الآية ٢٠ .

وحديث الجنة وما فيه من الأنهار التي تجري طويل ، فهو يعرض في آياتٍ كثيرةٍ لا سبيل إلى حصرها في هذا المختصر . ولا يقتصر الأمر على الأنهار ، فقد أُردفت هذه « بالعيون » في آياتٍ عدة .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(١) .
﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾(٢) .

ثم إن هذا النعيم لا يقتصر على الماء ، فالأنهار عدة ، وهي مختلفة الألوان فهي من لبن وخمر وعسل مُصَفّى :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾(٣) .

وهذه النِّعم هي مما يفتقر إليها العربي ، ولذا فهو يحرص عليها ويتمناها . وهي تحضر في أدبه إذا تحدّث عن المتعة واللذة والخير العميم .

ويقرأ العربي القرآن فترتاح إليه نفسه ويطمئن إليه قلبه ، فهو يحدّثه عن أشياء هي أسمى ما يرجوه ويأمله .

ولقد افتقد العربي الخضرة ولذلك فهو يقصدها أنّىٰ وجدها ، وهو نتيجة حتمية في بيئة تفتقر إلى الماء . ومن هنا أحب العرب الربيع ، وسموا به أسماءهم ، وصار اللون الأخضر أحب الألوان إليهم ، لأنه لون العشب النضر الذي يبعث في نفوسهم الأمل والحياة ، وصاروا إذا أرادوا أن يَصِفوا بعضهم بالنعمة وصَفوه بالخضرة .

---

(١) سورة الذاريات : الآية ١٥ .
(٢) سورة الرحمن : الآية ٥٠ .
(٣) سورة محمد : الآية ١٥ .

وإذا أرادوا ، أنهم تنعموا بنعمة أبطرتهم ، وجعلتهم ينزعون إلى المخاصمة والشر ، قال شاعرهم :

قَوْمٌ إذا آخْضَرَّتْ نِعَالُهُمُ يَتَنَاهَقُونَ تَنَاهُقَ ٱلْحُمُرِ

ومن أجل ذلك جاء وصف الجنة بالخضرة فقال تعالى :

﴿وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ﴾(١) .

كما يصف ملابس أهل الجنة بالخضرة :

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾(٢) .

كما اشتملت الجنة على سائر صنوف الخضرة من ألوان الشجر :

﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾(٣) .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾(٤) .

﴿وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾(٥) .

وهذا العالَم الأخضرالذي عمر بالزرع وأصناف الشجر ، لا بد أن يستمتع أهله بالظل الظليل كما تشير الآيات المحكمات :

---

(١) سورة الرحمن : الآيات ٦٢ ـ ٦٤ .
(٢) سورة الإنسان : الآية ٢١ .
(٣) سورة الرحمن : الآية ٦٨ .
(٤) سورة النبأ : الآيتان ٣١ ـ ٣٢ .
(٥) سورة الواقعة : الآيات ٢٧ ـ ٣٣ .

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا ، وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾[1] .

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[2] .

والجنة عالم اجتماعي قد احتوى على جميع مقوّمات المجتمع الطاهر السليم ، ففيه ألفة وفيه اجتماع واستمتاع ، وفيه يأنس الرجل بزوجه وبنيه وأهله الصالحين :

﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِيْنٍ﴾[3] .

وحديث الحور العِين معروف في آيات القرآن وهو لون من ألوان المتعة المهذبة ، والعربي يقرأ هذا ويسمعه ، فيلمس فيه صورة عالية لم ينل منها القليل اليسير ، ولذلك فهو يتوق إلى عالَم الجنة التي هي أسمى ما يبتغيه ، بالحور العِين ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ﴾[4] .

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[5] .

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾[6] .

ولقد أسهب القرآن في وصف مظاهر النعمة والترف فذكر :

﴿يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾[7] .

وهم متكئون ﴿عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾[8] .

---

(١) سورة الإنسان : الآية ١٤ .
(٢) سورة يسّ : الآية ٥٦ .
(٣) سورة الدخان : الآية ٥٤ .
(٤) سورة الواقعة : الآية ٢٣ .
(٥) سورة الحج : الآية ٢٣ .
(٦) سورة الكهف : الآية ٣١ .
(٧) سورة الحج : الآية ٢٣ .
(٨) سورة الطور : الآية ٢٠ .

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾(١) .

﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾(٢) .

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾(٣) .

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾(٤) .

﴿لاَ يَسْمَعونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إلاّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً﴾(٥) .

وبعد فهذا عرض موجز لوصف الجنة في القرآن قصدنا فيه أن نظهر علاقة الأدب القرآني الرفيع بالبيئة العربية ، ولقد تَبَيَّنا أن اللغة الشريفة قد تأثرت بالبيئة في وصف الجنة والنار ، ولا عجب فهو لسان عربي مبين يهدي لِلتي هي أقوَم .

---

(١) سورة الزخرف : الآية ٧١ .

(٢) سورة الطور : الآية ٢٢ .

(٣) سورة الإنسان : الآية ٢١ .

(٤) سورة المطففين : الآيات ٢٥ ـ ٢٧ .

(٥) سورة الواقعة : الآيتان ٢٥ ـ ٢٦ .

الفصل السادس

حُسْنُ الأداء

هذا ما نعبّر عنه بـ « حُسن التلاوة » أو قل إن شئت « التجويد » ولا نحسبنَّ « التجويد » ضرباً من التطريب وإحسان النغمة وإجرائها مجرى الألحان، تعالى الله أن تُتلىٰ كلماته بشيءٍ من « الصبا » و« الحجاز » من لحون العرب ، والرست والدوكاه وغيرهما من لحون الأعاجم . إنه « الترتيل » عملاً بقوله ـ جل اسمه ـ ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1] . وقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2] .

قال الإمام الزمخشري في معنى « الترتيل » في سورة المُزَّمِّل :

ترتيل القرآن : «قراءته على ترسُّل وتؤدة بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، حتى يجيء المتلوُّ سرداً كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ شر السير الحقحقة ، وشر القراءة الهذرمة حتى يشبه المتلو في تتابعه النغر الألَصّ »[3] .

---

(١) سورة المُزَّمِّل : الآية ٤ .

(٢) سورة الفرقان : الآية ٣٢ .

(٣) وروى : شر القراءة « الهذرمة » كما في « الغريب المصنّف » لأبي عُبيد من حاشية (الكشّاف) .

وسُئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت : « لو أراد السامع أن يعدّ حروفه لعدّها »[1] .

وجاء في « اللسان » :

وكلام رتل ورتل أي مرتل حسن على تؤدة . ورتَّلَ الكلام : أحسن تأليفه وأبانه وتمهّل فيه . والترتيل في القراءة : الترسُّل فيها والتبيين من غير بغي .

وفي التنزيل العزيز : ﴿وَرَتِّلِ القُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ .

قال أبو العباس : ما أعلم الترتيل إلا التحقيق والتبيين والتمكين ، أراد في قراءة القرآن .

وقال مجاهد : الترتيل التَّرسُّلُ ، قال : ورتَّلْتُهُ ترتيلاً بعضه على إثْرِ بعض .

قال أبو منصور : ذهب به إلى قولهم : ثَغْرٌ رَتِلٌ إذا كان حسن التنضيد .

وقال ابن عباس في قوله : وَرَتِّلِ القرآنَ ترتيلاً ، قال : بيّنه تبيينا .

وقال أبو إسحاق : والتبيين لا يتم بأن يعجل في القراءة ، وإنما يتم التبيين بأن يبين جميع الحروف ويوفيها حقها من الإشباع .

وفي صفة قراءة النبي ﷺ : كان يرتل آيةً آيةً[2] .

ولا أراني قد أسرفت في الكلام على الترتيل ، وإن كان شيء من ذلك

---

(١) الزمخشري : الكشّاف ٦٣٧/٤ (مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ١٣٦٥ هـ)

(٢) لسان العرب : مادة (رتل) .

فسببه ما أريد أن يكون ما يفهم منه غير ما يُفهم في عصرنا من أنه ما نسمعه في المساجد والمحلات العامة من كلام الله مفرغاً في الأشرطة المسجلة على لحون تأخذ بنفوس الناس وعقولهم ولا سيما العامة منهم من غير أن يفهموا المراد منه .

قلت : ليس « التجويد » غناء بل هو إحسان لإخراج الكَلِمِ مخرجاً حسناً . ومن هنا كانت التلاوة قراءة حسنة ، وهذا يعني أن بين التلاوة لكلام الله والقراءة المجوّدة لِنَصٍّ من النصوصِ يفرضها حُسن الأداء لهذا وذاك . ومن أجل هذا يحسن بنا أن نتوسع قليلاً في لوازم هذه الناحية من الأداء الحسن .

إن من تمام آلة المجوِّد أن يعرف مادة «الوقف» وأن يحسن كيف ينتهي ثم كيف يبتدىء بعد ذلك .

وقد فطن المسلمون الأولون إلى هذه المسألة لِما يتأتّىٰ منها من مشكلات في تلاوة القرآن . لقد أخرج النحّاس قال : حدّثنا عبد الله محمد بن جعفر الأنباري ، حدّثنا هلال بن العلاء حدّثنا أبي وعبد الله بن جعفر قالا : حدّثنا عبد الله بن عمر والزرقي عن زيد بن أبي أنية عن القاسم بن عون البكري قال : سمعت عبد الله بن عمر يقول : لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا لَيؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة على محمد ، ﷺ ، فنتعلم حلالها وحرامها ، وما ينبغي أن يوقف عنده منها كما تتعلّمون أنتم اليوم ، ولقد رأينا رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما أمره ولا زجره ، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده .

قال النحّاس : فهذا الحديث يدلُّ على أنهم كانوا يتعلمون الأوقاف كما يتعلّمون القرآن[1] .

---

(١) السيوطي : الإتقان ١/٨٣ .

وقال ابن الأنباري في قوله تعالى : ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ : من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء[1] .

وفي « النشر » لابن الجزري : لما لم يمكن القارىء أن يقرأ السورة أو القصة في نَفَسٍ واحد ولم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل ، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة، وجب حينئذ اختيار وقفٍ للتنفس والاستراحة وتعيَّنَ ارتضاء ابتداءٍ بعده ، ويتحتم ألا يكون ذلك مما يخلُّ بالمعنى ولا يخلّ بالفهم ، إذ بذلك يظهر الإعجاز ويحصل القصد . ولذلك حضَّ الأئمة من الصحابة وصح بل تواتر عندنا تعلمه والاعتناء به من السلف الصالح كأبي جعفر يزيد بن القعقاع أحد أعيان التابعين وصاحبه الإمام نافع وأبي عمرو ويعقوب وعاصم وغيرهم من الأئمة ، وكلامهم في ذلك معروف ، ونصوصهم عليه مشهورة في الكتب . ومن ثم اشترط كثير من الخلف على المجيز ألا يجيز أحداً إلا بعد معرفته الوقف والابتداء[2] .

وقد اهتم المتقدمون من علماء اللغة في مادة « الوقف والابتداء » اهتماماً زائداً فأشاروا إلى أنماط الوقف في القرآن إشارات دقيقة دلّت على مبلغ عنايتهم بأداء كلام الله ـ جلَّ شأنه ـ

قال ابن الأنباري : الوقف على ثلاثة أوجه : تام وحسن وقبيح . فالتام : الذي يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، ولا يكون بعده ما يتعلّق به كقوله تعالى :

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وقوله : ﴿ . . . أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن : ١/٨٣ .

(٢) ابن الجزري : النشر في القراءات العشر : ١/٢٢٤ ـ ٢٢٥ (مطبعة مصطفى الحلبي بمصر) .

والحسن : هو الذي يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده كقوله تعالى :

﴿الحَمْدُ لِلَّه﴾ لأن الابتداء بـ ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ لا يحسن لكونه صفة لما قبله .

والقبيح : هو الذي ليس بتام ولا حسن كالوقف على « بسم » من قوله تعالى ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ قال : « ولا يتم الوقف على المضاف دون المضاف إليه ، ولا المنعوت دون نعته ، ولا الرافع دون مرفوعه وعكسه ، ولا الناصب دون منصوبه وعكسه ، ولا المؤكد دون توكيده ، ولا المعطوف دون المعطوف عليه ، ولا البدل دون مبدله ، ولا « ان » أو « كان » أو « ظن » وأخواتها دون اسمها ، ولا اسمها دون خبرها ، ولا المستثنى دون الاستثناء ، ولا الموصول دون صلته ، ولا الفعل دون مصدره ، ولا الحرف دون متعلقه ، ولا شرط دون جزائه[1] .

إن هذه المواد اللغوية التي تتصل بحسن الأداء لا علاقة لها بما هو معروف في عصرنا هذا وقبل عصرنا بقرون عدة من أن « تجويد » التلاوة تعني إرسال الآيات الكريمة في نمط من التغنّي بتمطيط النغم وإشباع الأصوات على نحو ينتهي إلى التطريب .

وليس تحسين الصوت يعني الغناء كما في الحديث الذي أخرجه ابن حيّان « زَيِّنوا القرآن بأصواتكم » وفي لفظ عند الدارمي : « حَسِّنوا القرآن بأصواتكم فإنَّ الصوت الحسن يزيد القرآن حُسْناً » .

وأخرج البزّاز وغيره حديث « حسن الصوت زينة القرآن » .

وأما قراءة القرآن بالألحان فَنَصّ الشافعي في « المختصر » أنه لا بأس

---

(١) السيوطي : الإتقان ١/٨٣ ـ ٨٤ .

بها ، وعن رواية الربيع الجيزي أنها مكروهة .

قال الرافعي ، فقال الجمهور : ليست على قولَين بل المكروه أن يفرَط في المد وإشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة ألف ، ومن الضمة واو ، ومن الكسرة ياء ، أو يدغم في غير موضع الإدغام ، فإن لم ينتهِ إلى هذا الحد فلا كراهة .

قال : وفي زوائد « الروضة » والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام يفسق به القارىء ويأثم المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم . قال : وهذا مراد الشافعي بالكراهة[1] .

ولقد انحرف أهل القراءات إلى التطريب بل قُل الغناء منذ عصور عدة ، فقد أشار ضياء الدين بن الأثير في « المَثَل السائر » إلى هذا الانحراف فقال :

ومما جِيد فيه عن السُّنَن قراءة القرآن بضروب الألحان ، وتلك قراءة تخرج حروفها من غير مخرج ، وتبدو معوجة وهو قرآن عربي غير ذي عِوَج ، وقد أمر الله بترتيله وإيراده على هيئة تنزيله ، فمن قرأه بالترجيع والترديد ، وزلزل حروفه بالتمطيط والتمديد ، فقد ألحقه بدرجات الأغاني وذهب بما فيه من طلاوة الألفاظ والمعاني . قال النبي ﷺ : « إقرؤ وا القرآن بلحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل الفسوق ولحون أهل الكتابين . وسيجيء بعدي قَوْمٌ يُرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم[2] .

ويتأتى هذا الاهتمام بالتلاوة لكلام الله سبحانه وتعالى من أن العرب

---

(١) السيوطي : الإتقان ١٠٧/١ .

(٢) ابن الأثير : المثل السائر ١٥٣/٢ (نشر البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٥٨ هـ) .

أهل بيان ، وأن البيان يقضي أن يكونوا مالكين لجملة أدوات تتصل بالكلمة وبنيّتها ثم أصواتها وعلاقة الصوت بالصوت الذي يليه . ألا ترى أنهم قالوا : إن من شروط فصاحة الكلمة أن تأتي متباعدة المخارج .

وما أظن أن أعرابياً قال : «تركت ناقتي ترعى الخعخع » وذلك لأن العربي لا يقوى على إخراج أصوات هذه الكلمة مجتمعة على هذه الهيئة . ويدل على هذا ما ورد في « التهذيب » :

قال النضر بن شميل في كتاب « الأشجار » : الخعخع : شجرة . قال : وقال أبو الدقيش هي كلمة معاياة ولا أصل لها[1] .

ومما يدل على هذا أن الخليل أهمل العين مع الهاء في المضاعف أيضاً للعلّة نفسها[2] وليس ما ورد من هذا الباب إلا من باب الوضع والافتعال . فقد ذكروا أن الفرّاء قال : عهعهت بالضأن عهعهة ، إذا قلت لها : عه ، وهو زجر لها ، وقال غيره : هو زجر للإبل لتحتبس[3] .

وقد يأخذك العجب إذا عرفت أن العرب في القرن الثاني للهجرة أدركوا من عِلم الأصوات (الفونتيك) Phonétique وما يُسمى بعلم وظائف الأصوات (الفنُولـوجيـا) Phonologie الكثير مما يدخل في ملاك هذا الاختصاص في عصرنا هذا .

إن ضبط مخارج الأصوات ومعرفة أحيازها ووصف صفاتها ليعد فتحاً في العلم أدركه الخليل بن أحمد ثم خلف من بعده نفر أوضموا وزادوا .

إن هذه المعرفة أدّت بهم إلى أن يعرفوا البيان وكيف تكون الكلمة ثم

---

(١) الأزهري : التهذيب ١/٥٥ . وانظر الجمهرة ١/١٤٠ .

(٢) كتاب العين (مخطوطة آل الصدر في الكاظمية في العراق) .

(٣) لسان العرب : مادة (عهه) .

الكلام بَيِّناً فصيحاً ينتهي إلى حَدٍّ من البلاغة .

ومن أجل هذا كان من صفات الأنبياء أَنْ يَتَّصِفوا بالفصاحة والبيان ، جاء في قوله تعالى على لسانِ موسى عليه السلام : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾[1] .

وكان موسى قد سأل الله حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته ، والإبانة عن حجَّته والإفصاح عن أدلّته ، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه والحبسة التي كانت في بيانه : ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[2] .

والإشادة بالبيان وفضله وأنه مما ينبغي أن يعلم ، وارد في القرآن في آياتٍ عدة ، منها قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾[4] ، وقوله : ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[5] ، وقوله : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[6] .

وهذا يعني أن الأداء الحسن يشتمل على إجادة التلاوة والترتيل ، كما يشتمل على الإبانة ومن هنا نصل إلى درجات البلاغة .

ولا تحسبنَّ الحديث الذي تتحدث به وقراءة نص من النصوص بعيدة عن هذا فهي محتاجة إلى جميع هذه الأدواتِ من إخراجٍ حسنٍ للأصوات

---

(١) سورة القصص : الآية ٣٤ .
(٢) سورة طه : الآيتان ٢٧ ـ ٢٨ .
(٣) سورة الرحمن : الآيات ١ ـ ٤ .
(٤) سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .
(٥) سورة النحل : الآية ١٠٣ .
(٦) سورة النحل : الآية ٨٩ .

واختيارٍ حسنٍ للأبنية واصطفاءٍ للفصيح المليح وإصابة المعنى بِيسُر .

وأنت إذا بحثت في حديث رسول الله ﷺ ، وجدت أن الرسول نهى عن « التشادق »[1] وهو تحريك الشدقَين بكثرة ، فقال : « إيايَ والتشادق » وقال : « أَبْغَضُكُمْ إلَيَّ الثرثارونَ المُتَفَيْهِقون »[2] .

وإنك لتجد من قوَّة عارضتهم وعنايتهم بالكلام والحديث ما تستشفُه من ملاحظتهم لعيوب المتحدثين والخطباء منهم . إنك تعرف من ذلك اللجلجة والتمتمة والفأفأة والحبسة والحكلة والرتة واللفف والعجلة والحصر والعيّ .

ولقد أشار الجاحظ في « البيان » إلى جملة صالحة مما يعرض للمتحدث أو الخطيب فقال : « وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العِيِّ من اختلال الحجة ، وعن الحَصَرِ من فوت دَرَكِ الحاجة ، والناس لا يعيِّرون الخُرْسَ ، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز . وهم يذمّون الحَصِرَ ويؤنبون العَيِيَّ ، فإن تكلَّفا مع ذلك مقامات الخطباء ، وتعاطَيا مناظرةَ البلغاء ، تضاعف عليهما الذم وترادف عليهما التأنيب ومماتنة العَيِيِّ الحصِرِ للبليغ المِصْقَعِ ، في سبيل مماتنة المنقطع المفحَمِ للشاعر المفلق ، وأحدهما ألوم من صاحبه والألسِنةُ إليه أسرع .

« وليس اللجلاج والتمتام والألثغ والفأفاء وذو الحُبْسةِ والحُكلة والرُتة وذو اللفف والعجلة ، في سبيل الحَصِرِ في خطبته ، والعَيِيِّ في مناضلة

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١/١٢ .

(٢) في الكامل للمبرِّد ١/٥ الحديث : ألا أخبركم بأحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطّأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ، ألا أخبركم بأبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة ؟ الثرثارون المتفيهقون .

خصومه كما أن سبيل المفْحَمِ عند الشعَراء والبكيءِ عند الخطباء خلاف سبيل المسهِبِ الثرثار والخَطِل المِكثارِ »[1] .

ثم إعلم ـ أبقاك الله ـ أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب من الخطباء والبلغاء ، مع سماجة التكلُّف ، وشنعة التزيُّد ، أعذر من عيٍّ يتكلَّف الخطابة ، ومن حَصِرٍ يتعرض لأهل الاعتياد والدُّربة ، ومدار اللائمة ومستقر المذمة ، حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلُّف ، وبياناً يمازجه التزيد . . .

فأنت تجد أن الخطبة والحديث إلى الناس قد وُزِنا بموازين دقيقة . وأن لا بد للخطيب أو المتحدث من ثقافة ومعرفة ودربة . ومن هذا عِلم بالأصوات واتصال بعضها ببعض .

انظر إلى كلام الجاحظ على واصل بن عطاء المعتزلي قال :

« ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغُ فاحشُ اللَّثَغِ وأن مخرج ذلك منه شنيع وأنه إذا كان داعيةَ مقالةٍ ، ورئيس نِحلةٍ ، وأنه يريد الاحتجاج على أربابِ النِّحل وزعماءِ الملل ، وأنه لا بد من مقارعة الأبطال ، ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى تمييزٍ وسياسة ، وإلى ترتيبٍ ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة ، كحاجته إلى الجزالة والفخامة . . . »[2] .

ثم قال :

« ومن أجل الحاجة إلى حُسن البيان وإعطاء الحروف حقوقها من

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١/١٣ .

(٢) المصدر السابق ١/١٤ .

الفصاحة رام أبو حذيفة ـ واصل بن عطاء ـ إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأنى لستره والراحة من هجنته حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمَّل »[1] .

وقد عرفوا قدر البيان فقالوا : البيانُ بَصَرٌ والعِيُّ عَمَى[2] .

وقال يونس بن حبيب : « ليس لعييٍّ مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ولو حَكَّ بيافوخه أعنانَ السماء »[3] .

وإنك لتجد في رسالة بشر بن المعتمر فيما نقله الجاحظ في «البيان» فوائد جمة في اللفظ وتخيُّره بالنسبة إلى معناه فقد قال :

« ومن أراد معنى كريماً فلْيلتمسْ له لفظاً كريماً ، فإن حقَّ المعنى الشريفِ اللفظُ الشريفُ ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجِّنهما »[4] .

ثم قال :

« ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدارَ المعاني ويوازنَ بينها وبين أقدارِ المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات . . . »[5] .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١/١٥ .
(٢) المصدر السابق ١/٧٧ .
(٣) المصدر السابق : وانظر اللسان (عنن) .
(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ١/١٣٦ .
(٥) المصدر السابق ١/١٣٨ .

فأنت ترى أن حُسن البيان والأداء يلزم صاحبه أن يعرف المقامات ويعرف أقدار المستمعين ، ومن أجل هذا قالوا : لكلِّ مقامٍ مقال .

وقد خصّوا الحديث بعنايتهم فمن تمام آلةِ المحدِّث أن يكون فَطِناً ذكياً يعرف كيف يدير الحديث وكيف يتخيَّر ألفاظه وكيف يدرك معانيه بلفظٍ موجزٍ رشيق إن اقتضى المقام الإيجاز ، بل الإيماءة الخاطفة ، فإذا لزم الأمر شيئاً من الإفاضة فالإسهاب ضرورة وبيان وبلاغة ، ومن أجل هذا قال مالك بن أسماء :

وحَديثٌ ألَذُّهُ هُوَ مِمَّا ينعتُ الناعتونَ يوزَنُ وَزْنا
منطقٌ صائبٌ وتلحنُ أحيا ناً وأحلى الكلامِ ما كان لحنا

ولقد فهم الجاحظ من شعر أسماء أنه أراد بـ « اللحن » الخطأ في الكلام ، ولذلك قال في تقديم هذه الأبيات الثلاثة التي اجتزأنا منها البيتين المذكورين :

« وقد قال مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه »[1] .

إلاّ أن الجاحظ نفسه قد رجع عن هذا الرأي بعد أن سار كتاب البيان والتبيين في الآفاق ، وفسر « اللحن » بأنه التعريض والتورية[2] .

ولعلك تدرك قيمة الحديث الحسن عندهم حين تقرأ قول الراجز :

ورُبَّ نضوٍ طرقَ الحيَّ سرَى صادَفَ زاداً وحَديثاً ما اشتَهى
إنَّ الحديثَ جانبٌ من القِرَى

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١٤٧/١ .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٢١٤/١٢ ، معجم الأدباء ٦٥/٦ (طبعة مرجليوث) .

هذا عرض للبيان وحُسنه وأدائه وما ينبغي لصاحبه من أدوات وآلات في تراثنا الأدبي القديم .

فماذا عن الأداء وحُسنه في عصرنا هذا ؟

أقول : لا بد أن يكون الحديث مرتلاً ، وأريد أن أقف ثانيةً على « الترتيل » لأبعد عنه ما لحق به من « اللحن » و« النغم » .

قد يقول القارىء : وماذا عن « المصحف المرتل » ؟

أقول : ليس ما جرى عليه أصحاب « الترتيل » في المصاحف « المرتلة » ، تلك التي أُفرغت في أشرطة ورقوق من الترتيل الذي نريده لسلامة الأداء وسلامة اللغة .

لقد أقلَّ هؤلاء القرّاء من النغمات الطويلة إلى أُخرى قصيرة جرت على وتيرة واحدة . ثم إنك لو امتحنت بلاء هؤلاء القرّاء في ضبط المد والوقف والابتداء وغير ذلك من أدوات التلاوة الصحيحة لوجدتهم مثلاً يمدّون « إلاّ » كثيراً بل إفراطاً من قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾[1] ، في حين أن كلمة « تجارة » يطوى فيها المد طيّاً عابراً ومثله في كلمة « حاضرة » .

ثم إنك لا تحس أن هؤلاء يبذلون من جهد في إحسان إخراج الأصوات على نحو ما صرّح به المتقدمون من علماء العربية.

ونعود لنقول : إن « الترتيل الصحيح » تطلُّب في تلاوة آيات الله كما هو تطلُّب في الوقت نفسه في الحديث والإلقاء في المقامات المطلوبة . وهذا يعني أن المتحدث وهو الفطن اللبيب يدرك المقامات والحالات التي

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٢ .

مر ذكرها فيرتل كلامه ويجيد إلقاءه ويتخيَّر كلماته ويصيب معانيه .

وليس « الترتيل » غناءً وتطريباً ، وإننا لنرفض الغناء والتطريب تعالى الله أن تجري بهما كلماته كما نرفض بل نحرم أن تؤدى الآيات البَيِّنات بشيء من الموسيقى . إن الغنـاء والتطريب والموسيقى أشياء متشابهة .

ثم ماذا يلزم المتحدث والقارىء والمتكلم من أدوات في عصرنا هذا ؟

ينبغي للمتحدث الجديد في عصرنا أن يعرف العربية ويعرف موادّها صرفاً ونحواً ، وأبنيةً وأصواتاً . ثم إنه على شيء من فهم مقتضى الحال وما يلزم لكل مقام من مقال . وهو ملزم أن يعرف الوقف والابتداء والإدغام والإبدال معرفةً جيدة .

ألا ترى أن المتحدث في عصرنا لم يُميِّز بين « الوصل » والهمزة المحققة التي تُدعى بهمزة « القطع » .

هذه خلاصة موجزة لما كان عليه الأداء الحسن ولما ينبغي أن يكون في عصرنا هذا ، العصر الذي نسعى فيه إلى أن تكون لنا عربية سليمة . وهل السلامة في اللغة إلّا جماع أدوات هي تمام آلة المتحدث والقارىء والكاتب والخطيب . . .

الخاتمة

لو قلتَ : إن لمادّة الحضارة الإسلامية أصلاً في كتاب الله ، وإنها تستمد منه عناصرها ما أراك إلاّ أصبت الحقيقة ، وأدركت جوهر الموضوع .

لقد كثر الباحثون والدارسون لكتاب الله ، وعرض كل نفر منهم لمادّة مُعيّنة ، وما أظنهم على كثرتهم وفضلهم أدركوا الكثير مما يتوفر عليه هذا الكتاب الكريم . وقد يقال أن الحضارة الإسلامية قد استقبلت روافد أجنبية ذات أصول غير عربية من الإغريق والفرُس وغيرهم . وهذا صحيح ، إلا أن هذه الروافد على قيمتها وأصالتها ، لم تحجب الحقيقة العلمية التي تتجلى في كون هذه الحضارة ذات قواعد إسلامية استقرت عليها ، فَعَلا بُنيانها فكانت بحق « حضارة إسلامية » .

إن من مادّة هذه الحضارة طائفة كبيرة من العلوم الإسلامية ، وكلّها يصدر عن شيء مما في كتاب الله ، وما أيّدته السُّنّة المشرّفة .

وبعد ، فإن هذه النبذة الموجزة التي أفرغتها في هذا الموجز ، بعض ما اشتمل عليه هذا العلم اللغوي الذي اتخذ من لغة القرآن مادّته . وإني لأقر بأني لم أنَل من هذا الفيض العميم إلا اليسير الذي أجعله فاتحةً لأعمال أُخرى أسأله ـ جَلّ وعلا ـ أن يسدِّد من خطاي للوصول إلى ما أريد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

ابراهيم السامرائي

٢٦ شعبان سنة ١٤٠٠
لهجرة الرسول عليه صلوات الله

المصادر والمراجع

١ ـ المعجمات :

أ ـ العين للخليل بن أحمد .

ب ـ الجمهرة لابن دريد .

جـ ـ اللسان لابن منظور.

د ـ التهذيب للأزهري .

٢ ـ الكشّاف للزمخشري .

٣ ـ الإتقان للسيوطي .

٤ ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري .

٥ ـ البيان والتبيين للجاحظ .

٦ ـ الكامل للمبرِّد .

٧ ـ تاريخ بغداد للخطيب .

٨ ـ معجم الأدباء لياقوت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥ ـ ٦
المقدمة	٧ ـ ٢٠
الباب الأول	٢١ ـ ٩٤
(١) ـ الفصل الأول : أبنية وأصوات	٢٣ ـ ٦٥
(٢) ـ الفصل الثاني : من نحو القرآن	٦٧ ـ ٩٤
الباب الثاني	٩٥ ـ ١٧٨
(١) ـ الفصل الأول : في نَظم القرآن (الكلمة والجملة)	٩٧ ـ ١٠٣
(٢) ـ الفصل الثاني : مع الدلالة والتطوُّر	١٠٥ ـ ١١٧
(٣) ـ الفصل الثالث : في الدلالة أيضاً	١١٩ ـ ١٢٧
١ ـ الرؤيا والحلم	١١٩
٢ ـ آنس	١٢٠
٣ ـ بشر	١٢٢
٤ ـ بصر وسمع	١٢٤
٥ ـ عين	١٢٥
٦ ـ غيث	١٢٥
٧ ـ قصد	١٢٦
٨ ـ مطر	١٢٧

الموضوع	الصفحة

(٤) ـ الفصل الرابع : من بديع القرآن ..... ١٢٩ ـ ١٤٧
(٥) ـ الفصل الخامس : البيئة العربية في القرآن ..... ١٤٩ ـ ١٦٤
ـ أثر البيئة في تصوير الجحيم ١٥٠
ـ التصوير الفني في وصف الجحيم ١٥٣
ـ صوَر الجنَّة في القرآن ١٥٩
(٦) ـ الفصل السادس : حُسْنُ الأداء ..... ١٦٥ ـ ١٧٨

الخاتمة ١٧٩
المصادر والمراجع ١٨٠
فهرس الموضوعات ١٨١

[رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٤٠ لسنة ١٩٨١]

تنضيد وطباعة وإخراج :

مؤسسة المطبوعات العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة : شارع سوريا - بناية حمدي وصالحة - ت : ٢٤٣٤١٦
المخازن : الصنائع - شارع مستشفى بناية القبان - ت : ٢٣١٤١٣
برقيا : أرابليك - ص.ب : ٧٧٨٧
بيروت - لبنان

[رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٤٠ لسنة ١٩٨١]

تنضيد وطباعة وإخراج :
مؤسسة المطبوعات العربية
بيروت - لبنان

منشورات
اللجنة الوطنية
للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري
بغداد - العراق